عبير
روايات رومانسية عالمية

سارا كريفن

حتى تموت الشفاه



مكتبة زهران

سارا كريفن حتى تموت الشفاه مكتبة زهران

عبير
روايات رومانسية عالمية

حتى تموت الشفاه

حين
يصادف الانسان حلمه امامه
متجسداً في شخص طالما بحث عنه
وانتظره. هل يتركه يتجاوزه. ام يلحقه ويتشبث
به كطوق النجاة. وهل يكون خائناً إن فعل؟ ميندوزا
عاهد نفسه على الانتقام من رودريغو الذي قتل والده
وبقي باحثاً عنه. فجأه التقى بسوزان التي كانت تبحث عن
شقيقها.. هل يساعدها ميندوزا في بحثها ويتشبث بها. ام
يتركها ويتابع وحده... وهل يلتقي بحلمه من جديد اذا
تركها؟ لكن ما هو موقف سوزان من شروطه القاسية التي
فرضها عليها في سبيل مساعدتها... تقبل ام ترفض؟
تنساق لتوقعها اليه ام تطوي سرها وترحل؟ ويبقى
السؤال يضج في رأسها. يحبها ام ان
شروطه مجرد كونها امرأة؟

مكتبة زهران

جمهورية مصر العربية - القاهرة
١٥ شارع الشيخ محمد عبده - خلف الجامع الأزهر
ت [illegible] موبايل [illegible]

سارا كريفن

حتى تموت الشفاه

العنوان الاصلي لهذه الرواية بالانكليزية
FLAME OF DIABLO

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر - القاهرة
ت/ ٥١٤٢٩٥٥ - ٠١٢٢٣٧٨٦٤١٨

١ ـ المرأة الجليدية

كان الوقت شتاء. وحين دفعت سوزان كريشتون اجرة التاكسي، كانت ندف الثلج تتساقط بكثافة. أسرعت، بعد ذلك، لتقرع جرس البيت في الحاح. فتحت الباب امرأة طويلة، نحيفة، ترتدي فستاناً أسود واستقبلتها مبتسمة، وقالت:

«ها قد وصلت أخيراً. كان يسأل عنك في استمرار بينما كان الطبيب كينغستون يريد نقله الى مصح موردانت. إلاّ انه يرفض الذهاب قائلا إنه يريد لقاءك أولاً. انه في حالة سيئة فعلاً»

«اعرف ذلك»

أجابت سوزان وهي تضغط في مودة على يد مدبرة المنزل مدركة ان السيدة ثرستون، وهذا اسمها، ورغم مرور عشرين سنة على بدء عملها مع جدها، لا تستطيع حتى الآن ان تقبل رفض السير جايلز كريشتون لاي شيء يتعارض مع رغباته.

«جئت حين استلمت رسالتك. كيف حاله ؟ هذا شيء غير متوقع، اذ بدا أخيراً وكانه تعافى من النوبة السابقة»

توقفت سوزان عن الكلام حين رأت ان السيدة ثرستون تهز رأسها.

«هذه النوبة أسوأ بكثير من النوبة السابقة. لهذا يريد الطبيب كينغستون نقله الى المصح حيث سيخضع للاشراف المباشر. كنت معه حين اصيب بالنوبة القلبية وظننت انه هالك لا محالة.»

«أوه ثريستي ! لابد انك مررت بوقت عصيب معه. كان يجب علي الحضور فور انتهائي من العمل في المسرحية، اي منذ اسبوع.»

«لم يكن مجيئك ليغير شيئاً.»

قالت السيدة ثرستون وهي تساعد سوزان على خلع معطفها، واضافت:

«قضى السيد جايلز الاسبوعين الاخرين في لندن. وحين حاولت ان اذكره بنصائح الطبيب، كاد ينفجر غضباً. منذ ذلك الحين سكت. لكنني أتساءل هل في امكانه تجنب النوبة لو ألححت عليه في اللجوء الى الراحة ؟»

«لا أعتقد ذلك يا عزيزتي ثريستي . لا داع للوم نفسك.»

وتنهدت سوزان وهي تضيف:

«نعرف اصرار جدي على تنفيذ رغباته. ولكن ماذا فعل في لندن ؟ هل ذكر السبب؟»

«كلا. إلا انه ظهر في شكل مختلف. ربما كان للامر علاقة ما بالسيد مارك.»

«لا أعتقد ذلك.»

قالت سوزان في هدوء واضافت:

«برغم أملي ان يحقق ذلك. والآن من الافضل الذهاب لرؤيته.»

صعدت سوزان درجات السلم المؤدي الى غرف نوم الطابق الاول ثم سارت في اتجاه بابي غرفة النوم. وحين اصبحت على مبعدة خطوات منها، انفتح البابان وظهر بينهما رجل اشيب الشعر. بدا متعباً وقلقاً إلاّ ان عينيه لمعتا حين رآها، ثم التفت الى الغرفة التي غادرها منذ قليل.

«كيف حاله يا عم اندرو؟»

«لا أسوأ ولا أحسن.»

قال الطبيب في هدوء واضاف:

«لا بد ان وصولك سيساعده. اعطيته مهدئاً وارجو الا تدعيه ينفعل لاي سبب. سأذهب الآن لتدبير سيارة الاسعاف.»

ثم توجه نحو السلم.

كانت غرفة النوم دافئة، لهيب النار في الموقد القديم يرتفع. نظرت سوزان الى جدها المستلقي في فراشه. كان شاحباً جداً. لكنها حرصت ألاّ تظهر قلقها وهي تخطو باتجاه الكرسي قرب السرير. جلست منتظرة ان يفتح عينيه ويراها، غير راغبة في ايقاظه. أخيرا فتح عينيه. بدتا وكأنهما فقدتا بعض بريقهما السابق. نظر السيد جايلز اليها للحظة ثم قال:

«وأخيراً انت هنا.»

حاولت سوزان تجاهل لهجته التهكمية وتذكرت ما قالته السيدة ثرستون عن ذهابه يومياً الى لندن بدون أن يحاول الاتصال بها هناك. حاولت أيضاً نسيان موقفه منها منذ ولادتها، لانه اراد ان يكون المولود الاول صبياً. وبقي شعوره هكذا حتى بعد ولادة مارك .

انحنت وطبعت قبلة على خده وهي تقول:

«انا الى جانبك يا جدي، هل تحتاج شيئاً ؟»

«كلا يا طفلتي.»

بدا وكأنه يبذل جهداً كبيراً ليتحدث. اغلق عينيه مرة اخرى وبقي صامتاً. كان يسترجع قواه، ثم قال :

«هل سمعت شيئا عن مارك ؟»

«كلا، لا شيء ابداً.»

«ليس هذا مهماً. اعرف اين هو.»

«هل تعرف ذلك حقا ولم تخبرني من قبل ؟»

«ها أنا اخبرك يا طفلتي.»

قاطعها، فهدأ غضبها وهي تتذكر نصيحة الطبيب ألا تدعه يغضب. ثم اضاف:

«اكتشفت ذلك صدفة، اذ توجب علي الذهاب الى لندن. وبعد تناول الغداء في

النادي، جاء لاري فورسايث . هل تذكرينه؟»

«اعتقد ذلك.»

اجابت سوزان في آلية وهي ما تزال مشغولة بالخبر الذي سمعته عن مارك. ثم سألت:

«هل كان ديبلوماسياً؟»

«نعم، ولا يزال. انه يعمل في كولومبيا منذ سنوات، وقد التقى مارك هناك منذ ثلاثة اسابيع.»

«في كولومبيا؟»

وسألت سوزان ثم قالت:

«انه امر لا يصدق. هل كان متأكدا من انه مارك نفسه؟»

«طبعا كان متأكداً. عرفه فوراً، وقد تعرّف عليه مارك ايضاً. وهو يتناول العشاء مع مجموعة من الاصدقاء، بينهم شخص اسمه أرفاليز . وكما يتذكر لاري فان أرفاليز هو احد المحامين المشهورين في العاصمة الكولومبية بوغوتا.»

«اتذكر ان لمارك صديقاً يحمل هذا الاسم. كان معه في الجامعة، لكنني لم اعرف بانه من كولومبيا كما لم اعرف بانه صديق مقرب من مارك .»

توقفت عن الكلام مدركة أن مارك لم يكن يخبرها كل شيء عن صداقاته وعلاقاته بالآخرين.

قطبت جبينها للحظة ثم سألت جدها:

«هل أخبرك فورسايث ما يفعله مارك هناك؟»

«كلا. لا بد انه افترض انني ملم بالموضوع. هل تعتقدين بانني مستعد لنقاش قضايانا الخاصة مع الآخرين؟»

التمعت عينا السيد جايلز مما دفع سوزان الى الاجابة بسرعة:

«كلا، كلا. كان سؤالاً سخيفاً. هل تحدث اليه مارك في أي موضوع؟»

«كلا. لذلك سألتك اذا سمعت شيئاً منه. ظننت انه بعد ادراكه لمعرفتنا بمكانه، قد يكتب اليك.»

سكت الجد ليستعيد انفاسه. سوزان شاركته السكوت مستعيدة في الوقت نفسه بعض احداث الماضي.

في الماضي اعترض الجد بعنف على اختيارها التمثيل. لم يستطع تقبل فكرة اختيار حفيدته التمثيل كمهنة ولكنه لم يكن جدياً في اعتراضه، اذ فكر أن لا ضرر في امتهانها التمثيل لحين عثورها على زوج ملائم. اما بالنسبة الى مارك، فقد كان الوضع مختلفاً حيث خطط الجد لمستقبل مارك بدون الاخذ في الاعتبار شغف مارك بدراسة الجيولوجيا ومن ثم رغبته في مواصلة دراسته الجامعية. اعتقد الجد أن دراسة الجيولوجيا لم تكن غير رغبة صبيانية وان مارك سيتخلى عن الفكرة. الا ان مارك اثبت عكس ذلك وتخرج ليبحث عن عمل له كجيولوجي.

وهكذا بدأت المعركة الحقيقية بين الاثنين وشهدت سوزان ذروة الخصام حين جاءت لقضاء عطلة نهاية الاسبوع مع العائلة ولم تستطع التدخل بين الاثنين وكانا على وشك تمزيق أحدهما للآخر.

حدثت المواجهة بينهما مساء يوم أحد أثناء تناولهم وجبة العشاء. نظرت سوزان اليهما وفكرت أن المشكلة الحقيقية تكمن في انهما يتشابهان، حيث ان كلا منهما يعتقد انه المحق دائماً وأن لا وجود لأي وجهة نظر اخرى. جلست سوزان بينهما مقاومة رغبة ملحة في وضع يديها على اذنيها لتصمهما عن سماع الاتهامات المتبادلة، بلا توقف، بين الاثنين.

«ستكون مسؤولا. هل تسمعني؟ ما الذي تتوقعه غير منصب بائس في جامعة تتسول الصدقات قاضياً عطلاتك كدليل لعجائز في رحلات تجمع فيها الاحجار. هل هذا هو المستقبل الملائم لشخص ينتمي الى عائلة كريشتون؟»

«انك تثير فيّ التقزز. انت وأفقك الضيق وعدم إقرارك لما يفعله الآخرون. هل تعرف ما هو الراتب الذي يتقاضاه جيولوجي من الدرجة الاولى يعمل في احدى شركات النفط؟»

«هل تظن انك جيولوجي من الدرجة الاولى؟»

ضحك السير جايلز بسخرية واضاف:

«يتطلب الأمر سنوات لتصبح كذلك واظن انك ستعود الى هنا بعد عام لتستجدي مصروفك اليومي. حينئذ ستسمع أي جواب ستتلقى.»

شحب مارك لدى سماعه هذه الكلمات ثم حدق في وجه جده وقال في صوت واضح:

«اذا ما عدت في يوم ما، فسأكون غنياً. سأملك من المال ما يكفي لجعلك تبتلع كل كلمة قلتها الآن. لن اعود ما لم أحقق ذلك.»

ترك مارك الغرفة وتبعته سوزان طالبة منه العودة لكنه نظر اليها وكأنه لا يستطيع رؤيتها. قالت له اخيراً:

« مارك. انه رجل عجوز. يجب عليك معاملته بطريقة اخرى. لا تتركه ارجوك.»

«هل يبيح له التقدم في العمر الحق في أن يدوس على رغبات الآخرين؟ منذ وفاة الوالد والوالدة ونحن نعاني من تعسفه. اعتقد انني نلت الكفاية حتى الآن ولا أرغب في مواصلة ذلك طوال حياتي. يعتقد ان المال غير موجود في أي مدينة عدا لندن. سأحاول جهدي ان اثبت عكس ذلك.»

ثم قال لها:

«سأعود ذات يوم يا سوزان . فلا تقلقي.»

بعد أسبوع، عانى الجد من نوبته القلبية الاولى. كتبت سوزان الى مارك تخبره بما حدث، ثم حاولت الاتصال به لكنها لم تستطع العثور عليه في اي مكان. فقد أخلى شقته واختفى. اتصلت باصدقائه ولم يجبها احد بشكل واضح. منذ ذلك الوقت والاسرة في انتظار سماع أي شيء عن مارك . وها هو جدها، بعد ستة أشهر من اختفاء مارك ، يخبرها انه موجود في كولومبيا.

نظرت مرة اخرى، الى وجه جدها وذعرت للجفاف الذي كساه. كم يبدو متعباً ومريضاً... هل صحيح انه في طريقه الى النهاية ؟ لم يقترح العم اندرو ، من قبل، نقله الى المصح. لا بد ان حالته خطيرة في هذه المرة. لجأت الى الصمت وانتظرت.

قال الجد فجأة:

«كنت على وشك الذهاب لاعادته. أعددت كل شيء للسفر. ستجدين كل شيء في

درج مكتبي تذكرة السفر وحجز غرفة خاصة في فندق في بوغوتا. خططت للذهاب الاسبوع المقبل الآن عليك الذهاب بدلاً مني.»

للحظات ظنت سوزان انها لم تسمع جيداً ما قاله، لكنه كرر ما قاله واضاف:

«نعم عليك الذهاب يا سوزان . انها الطريقة الوحيدة لاعادة مارك اليّ قبل فوات الأوان.»

كانت سوزان تخبر الطبيب كينغستون بكل ما جرى لها في لقائها مع جدها المريض.

قال كينغستون بغضب:

«هذا أسخف شيء سمعته في حياتي. انك لا تعنين ما تقولين فعلاً؟»

أجابت سوزان بصوت متعب:

«هل لدي خيار أخر؟ أخبرتني كم هو مريض وانه معرض للاصابة بنوبة اخرى في أي لحظة.. انه يريد رؤية مارك قبل ان يموت وسأحاول تحقيق رغبته، ثم ان مارك وريثه ومن حقه رؤيته.»

هز الطبيب كينغستون رأسه في يأس. كانا في مكتبه الخاص في مصح موردانت حيث نقل الجد منذ نصف ساعة فقط.

رافقت سوزان جدها الى غرفته لتتمنى له ليلة سعيدة، لكنه كان تحت تأثير المهدىء. لم يتعرف عليها. كل ما قاله كان:

«يا طفلتي العزيزة.»

ثم صمت.

قالت سوزان:

«كل شيء مهيأ، حتى إنني حصلت على موعد، غداً، لاجراء التلقيحات المطلوبة. جوازي معد أيضاً ولا أحتاج الى اية تأشيرة سفر لاني لا أتوقع البقاء اكثر من ثلاثة أشهر.»

قطب الطبيب كينغستون حاجبيه وقال:

«عزيزتي، انه اسوأ شيء يمكن ان يحدث لفتاة جميلة مثلك. ما الذي كان جايلز

يفكر فيه حين قرر ارسالك وحدك الى اميركا الجنوبية؟»

قالت في هدوء:

«كان يفكر في اعادة مارك.»

ساد بينهما الصمت وانشغل كل منهما بافكاره الخاصة. تذكر كينغستون المقالة التي قرأها في احدى صحف الأحد عن سوزان وكيف أن الكاتب وصفها بانها فتاة المسرح الجليدية. ولعل الكاتب نسي أن ينظر الى عينيها وان يحدس اية مشاعر يخفيها هذا الوجه المحاط بشعر أشقر وطويل.

قال كينغستون موجهاً سؤاله اليها:

«ولكن ماذا عن عملك؟ المسرحية التي تمثلين فيها والبرنامج التلفزيوني؟»

ابتسمت سوزان وهي تجيب:

«انتهت المسرحية كما انني انهيت البرنامج التلفزيوني. قدم الي وكيلي الفني بعض العروض إلا انها ليست مهمة جداً. اطمئن. من الناحية العملية ليس هناك ما يؤخر ذهابي الى كولومبيا، كما انني افكر بعطلة ارتاح فيها من الشتاء الانكليزي.»

«اطمئني من هذه الناحية، فالجو هناك مختلف تماماً.»

«لن اتراجع عن وعدي الذي قطعته لجدي، خاصة أنك حذرتني من مخاطر تعريضه للغضب. اعتقد انه الوقت الملائم لكليهما لانهاء هذا الخصام السخيف بينهما. انا متأكدة بان مارك سيعود معي حالما يعرف خطورة حالة جدي.»

سأل كينغستون:

«ولكن هل يتوجب عليك الذهاب بنفسك ؟ اليس في مستطاع فورسايث القيام بذلك؟»

تنهدت سوزان وقالت:

«الا ترى ان جدي يرفض تدخل أي شخص غريب في شؤوننا العائلية الخاصة. انك الوحيد المطلع على ما يجري بين افراد العائلة. وكل شيء مهيأ لسفري. كل ما عليّ عمله هو معرفة مكان عائلة أرفاليز ثم اقناع مارك بالعودة، هذا اذا أراد رؤية الجد حياً. اعتقد ان بقائي في العاصمة سيكون قصيراً.»

اومأ الطبيب كينغستون برأسه بينما واصل تحريك قلمه في هدوء، ثم قال:

«يا طفلتي العزيزة، ما الذي تحاولين اثباته؟»

رأى تغير لونها وسمعها تقول:

«ليس من العدل ان تقول ذلك.»

«انها الحقيقة يا سوزان، أجيبيني.»

نهضت سوزان عن كرسيها وسارت في اتجاه النافذة لتحدق في الظلام. قالت:

«هل تعرف ان الثلج لم يتوقف عن السقوط.»

ثم اضافت بنبرة مختلفة:

«ألا تدرك كم هو مهم بالنسبة اليّ ؟ انها المرة الاولى التي يطلب فيها مني تنفيذ شيء له. كان هو الشخص الواهب دائما ولم يتوقع، مقابل ذلك، أي شيء مني لانني، ببساطة، فتاة.»

«لكنه فخور بك، وها أنت تثبتين أهميتك على المسرح. لا بد ان ذلك امر يفرحه.»

«اعتقد جدي دائماً ان للمرأة مكاناً واحداً هو البيت وليس المسرح، وان مهمتنا الاساسية هي الزواج وانجاب الاطفال. ومن الافضل ان يكونوا ذكوراً.»

«سوزان، ما تقولينه مجرد هراء.»

«كلا، انها الحقيقة، وكلانا يعرفها. لقد غفر منذ فترة طويلة لانني امرأة، إلا انه لم ينس ذلك. والفرصة الوحيدة هي المتاحة الآن لأرد له بعض فضله عليّ. انني في حاجة اليه. والى امتنانه. وهذا ما لن احصل عليه اذا لم اساعده في اعادة مارك . وأنا بحاجة الى مساعدتك لاعطائي حقن التلقيح الضرورية بدلاً من الطبيب الآخر. تعرف كم أخاف من حقني بالأبر.»

لم يبق أمام الطبيب كينغستون غير القبول بالأمر.

«اذا كان هذا قرارك الأخير، لم يبق أمامي سوى تنفيذ ما تطلبين.»

أراحت سوزان رأسها المتعب على زجاج نافذة التاكسي وحدقت في المطر المتساقط بغزارة وتمنت لو انها بقيت فترة أطول في الفندق لتأخذ قسطاً أوفر من

الراحة. لكن لم تبق غير فترة قصيرة سجلت فيها اسمها. تركت حقائبها في الغرفة ثم طلبت من كاتب الاستقبال عنوان السنيور أرفاليز. ولدهشتها تم تنفيذ كل ذلك في دقائق حيث اعطى الكاتب العنوان الى احد السائقين وطلب منه ايصال السيدة. لاحظت سوزان بيوت ضواحي بوغوتا الضخمة وأحست برعشة برد تسري في جسمها برغم ارتدائها بدلة من الصوف الناعم ذات لون يناسب بشرتها. لا بد ان لاختلاف مناخ بوغوتا عن مناخات بقية مدن أميركا اللاتينية علاقة بارتفاع المدينة ثمانية الآف قدم عن مستوى سطح البحر. تذكرت كيف مرّ الاسبوع السابق لسفرها في سرعة، قضت معظم الوقت في زيارة جدها واعداد حقائبها. وهكذا لم تجد فرصة ساعة للقراءة عن بوغوتا وأحوال العيش فيها.

وكما توقعت، فحالما استعاد جدها وعيه في اليوم التالي وعلم ان صحته أفضل، طلب منها الغاء السفر لانه يود القيام به بنفسه فيما بعد. ولم يتراجع عن قراره الا بعد ان أخبره الطبيب كينغستون ان شفاءه يتطلب أشهراً عدة. وحتى بعد سماعه ذلك، بقي متحفظاً لفكرة سفر سوزان ، وحذرها قائلاً:

«ان المجتمع في كولومبيا محافظ حيث للمرأة مهمة تعرفها وتحافظ عليها.»

«ألم افعل الشيء ذاته دائماً.»

تساءلت سوزان في لهجة متهكمة.

«انك فتاة طيبة، الا انك جميلة جداً ايضاً، وانت مقدمة على الاختلاط بمجتمع رجاله مختلفون. هل فكرت في ذلك جيداً؟»

أجابت سوزان:

«اعتقدت دائما انهم يهتمون بالذهب اكثر من الانتصارات العاطفية. ثم انني قادرة على الاهتمام بنفسي خاصة وانني اعمل في المسرح. ويطلقون عليّ لقب (الفتاة الجليدية).»

«هراء. أليس لكاتب المقالة علاقة بك ؟ ما الذي حدث، هل تخاصمتما؟»

سكتت سوزان للحظة. لم يكن في مستطاعها اخبار جدها العزيز الحقيقة. حقيقة ان لي، كاتب المقالة، وبعد ان اكتشف فشله في اغوائها، اطلق عليها ذلك اللقب. تذكرت كم كانت فخورة بصداقته وخاصة انه كان من نقاد المسرح

اللامعين. ثم كيف تطورت علاقتها الى حد أصبحت معه ضرورة يومية وكيف انه قبل بشروطها بعد أن أدرك انها لن توافق على كل ما يريده منها ما لم يوهمها بحبه وتعلقه بها. وقد صدقت اللعبة ودعته لزيارة جدها. صحيح ان جدها تصرف بطريقة مهذبة وابدى اهتمامه به، غير انه لم يستطع اخفاء مشاعره الحقيقية وعدم موافقته على علاقتها به. عللت سوزان نفسها بانها في حاجة الى وقت أطول ليفهم كل منهما الآخر خاصة وانهما ينتميان الى جيلين مختلفين تماماً. ثم حدثت الصدمة الكبرى حين دعاها لزيارة عائلته وفرحت هي لذلك، الا انه قضى نصف النهار يسوق السيارة في طرق مجهولة واخيراً وصلا الى كوخ ريفي ناء، لا يسكنه احد. وحين واجهته باتهاماتها، اعتذر وبرر الخطأ بسوء التوقيت. الا أنها ومنذ تلك اللحظة فقدت ثقتها به ولم تعد تفكر فيه كانسان محترم. ظهرت مقالة (الفتاة الجليدية) بعد اسبوعين من تلك الحادثة. صحيح انه حاول جهده بجعل المقالة موضوعية، غير انه استخدمها بذكاء في مهاجمتها واتهامها بالسذاجة والضحالة.

«نعم، لقد تخاصمنا.»

«حسنا. لا اعتقد انه خسارة كبيرة، لسبب ما لم استطع تقبل وجوده.»

أومأت برأسها في صمت وشعور بالعزلة يجتاحها.

تظاهرت في الاسابيع التالية انها تفضل البقاء وحيدة واقنعت نفسها بموقفها من لي مفضلة الاعتزال على ان ترضخ لمطالبه التي لم تستسغها، ولجأت في وحدتها الى الجد ومارك ، ولكن ما حدث بعد ذلك بين مارك والجد أدى الى زيادة عزلتها.

حاولت سوزان التخلص من هذا الماضي كله من خلال نظرة متفحصة على مسار السيارة. بدا وكأن الاسلوب المعماري في شوارع المدينة خليط من ناطحات السحاب وأبنية تشير الى الطراز الاسباني القديم، اضافة الى اقواس واعمدة الكنائس. قررت بانه مكان مثير للاهتمام ومن المؤسف انها لن تستطع البقاء فترة أطول وأملت في المكوث فترة ما. بعد العثور على مارك واقناعه بالعودة الى بريطانيا.

بدأت المشاهد تتغير كلما ابتعدت السيارة عن المناطق التجارية في اتجاه الأحياء السكنية. لم يكن هناك ما يدل على الفقر بل العكس فان البيوت وحدائقها الجميلة عكست هدوء ورخاء المنطقة، وايقنت ان عائلة أرفاليز تنتمي الى هذا العالم الغني، حين توقفت السيارة أمام احد البيوت.

طلبت من السائق انتظارها وتقدمت لتطرق الباب. كان البيت جميلاً له سقف منخفض تحيط به النباتات المتسلقة وازدهرت الورود على جانبي الممر المؤدي الى الباب الامامي، تمنت لو ان مارك موجود هنا كي تستطيع العودة معه حالاً ما دام الشاكي في الانتظار.

فتحت الباب امرأة ضخمة ترتدي فستاناً اسود مغطى بصدرية بيضاء، نظرت الى سوزان في ارتياب. تذكرت ما قرأته في كتاب «تعلم اللغة الاسبانية»، وسألتها عما اذا كان في امكانها التحدث الى السنيور أرفاليز .

صمتت للحظة حين رأت الاستغراب المرتسم على وجه المرأة لكنها فتحت الباب لها لتدخل، ثم قادتها عبر صالة كبيرة الى غرفة الاستقبال حيث طلبت منها الانتظار.

كانت الغرفة مؤثثة في شكل فاخر ومريح، الا انها شعرت بالقلق ولم ترغب بالجلوس بل بقيت واقفة في انتظار رؤية السنيور، اضافة الى ذلك فانها شعرت بصداعها يزداد سوءا.

انني حمقاء، قالت لنفسها، كان علي البقاء فترة أطول في الفندق لأتناول شيئاً من الطعام ولأتناول قسطاً من الراحة. لكن فكرة تناول أي طعام، برغم جوعها، لم تبد مستساغة لها وشعرت بامتنان غريب حين انفتح الباب أخيراً.

دخلت الغرفة امرأة قصيرة القامة، تبعتها شابة تشبهها الى حد أنهما بدتا لسوزان أماً وابنتها، رغم اختلاف الملابس، حيث اختارت الشابة ملابس ثمينة وبسيطة بينما فضلت الأم اظهار غناها بارتدائها فستاناً اسود زاد من بريق العقد الماسي والخواتم التي ارتدتها. تقدمت الفتاة خطوة الى الأمام لتقول في لغة انكليزية متعثرة.

«والدي غير موجود في البيت الآن. لذلك ترجو والدتي ان تكون قادرة على

مساعدتك. انها لا تعرف اللغة الانكليزية. والآن كيف تستطيع مساعدتك يا سنيورا؟»

«اسمي سوزان كريشتون . كنت أمل العثور على أخي هنا أو ربما تساعدونني في العثور عليه.»

توقفت سوزان لتعطي الفتاة فرصة ترجمة ما ذكرته للسنيورا، ثم تقدمت سنيورا أرفاليز نحوها ورحبت بها. لم تفهم سوزان كلمة واحدة مما قالته السنيورا إلاّ أنها أدركت ترحيبها بوجودها بينهم، وابتسمت استجابة لذلك.

تقدمت الفتاة وقالت:

«انت اذن اخت ماركوز . أنا ايزابيل ، ربما ذكر اسمي أمامك من قبل.»

«لم يذكر مارك أي شيء، لانني لم اسمع عنه منذ أشهر. لذلك جئت للبحث عنه لأن جدنا مريض جداً ويود رؤيته.»

بدت ايزابيل في حيرة.

«ولكنه ليس هنا. لقد غادرنا منذ ثلاثة أسابيع ليعود الى بريطانيا. ألم يعد بعد؟»

شعرت سوزان بالحزن ينتابها. اذن سفرتها كانت عبثاً. ربما عاد مارك فعلاً الى بريطانيا في الوقت الذي جاءت فيه الى هنا. ربما عاد لرؤية الجد وهو معه الآن.

«تبدين شاحبة يا سنيوريتا.»

ألحّت ايزابيل، وطلبت منها الجلوس. سرت سوزان للدعوة لانها أحست بان ساقيها تخذلانها. سألت سوزان:

«لكنه كان معكم؟»

«نعم، جاء مع ميغيل لانه يحب دعوة اصدقائه الى البيت.»

«ربما كان ميغيل على معرفة بمكان مارك. هل استطيع التحدث اليه؟»

«انه ليس هنا. ذهب الى كارتاغينا للبقاء مع عائلة خطيبته.»

تدخلت الأم في حديثها طالبة من ايزابيل توضيح الموضوع لها. واثناء قيام ايزابيل بالترجمة، بقيت سوزان صامتة تفكر بما ستفعله فيما بعد.

افترضت سوزان ان عليها الاتصال بالمصح لتسأل عن صحة جدها وعن

وصول مارك . ربما كانت هناك طريقة تستعلم من خلالها اذا كان مارك قد ترك البلاد فعلاً. عليها ان تلتقي بارفاليز لتسأله عن أي اقتراح أخر.

رفعت رأسها فاذا بها تشعر بدوار غريب مما دفع الأم للسؤال عما بها وهرعت ايزابيل الى جانبها.

«ماذا جرى ؟»

«اعتقد انني سأتقيأ.»

كانت الساعات التالية كابوساً متواصلاً عاشته سوزان . تذكرت كيف نقلت الى غرفة النوم في الطابق العلوي، ثم ساعدتها فتاة اسمها دولوريس على خلع ملابسها ووضعت اناء كبيراً قربها واصلت سوزان التقيؤ فيه بينما أعدت دولوريس كمادات باردة وضعتها على جبينها.

ارادت سوزان التعبير عن امتنانها لدولوريس لكنها أيقنت عبث المحاولة : فكلما حاولت رفع رأسها عن الوسادة انتابتها الحالة نفسها من جديد، الى ان استسلمت اخيراً لنوم عميق.

حين فتحت سوزان عينيها اخيراً كان الظلام سائداً. تحركت في فراشها بهدوء خوفاً من ان تتقيأ، الا انها شعرت بتحسن كبير. حالما جلست فتحت ايزابيل الباب:

«استيقظت ؟ هل تشعرين بالتحسن وهل تريدين التحدث الى والدي؟»

أومأت سوزان رأسها بالموافقة وقالت:

«آسفة لانني سببت لكم كل هذه المتاعب.»

«لم تسببي أية متاعب لنا. انه الارتفاع عن مستوى سطح البحر. غالباً ما يعاني السواح من الظاهرة نفسها إلا انهم يعتادون الجو بسرعة.»

جلبت ايزابيل شالاً واسعاً ووضعته في عناية على كتفي سوزان وعادت لتفتح الباب لوالدها.

كان السنيور أرفاليز متوسط القامة، له وجه ذكي ومرح. حيّا سوزان ثم جلس على كرسي مجاور لسريرها، الا ان ما أثار دهشة سوزان هو بقاء ايزابيل في الغرفة برغم عدم ضرورة ذلك.

بعد تبادل كلمات الترحيب العادية، انتقل أرفاليز الى الموضوع الأساسي مباشرة:

«آسف لاننا لا نستطيع اخبارك شيئاً جديداً عن اخيك. كل ما نعرفه هو انه توجه عائداً الى بريطانيا.»

ثم نظر الى سوزان في عطف وقال:

«صدقيني. أتمنى لو استطعت مساعدتك. الا أن مارك بقي هنا فترة قصيرة ثم غادرنا. زيارته كانت اقصر مما توقعنا وتمنينا، لانه علم بذهاب ميغيل الى كارتاغينا .»

«ألم يخبر مارك احداً عن رغبته البقاء في كولومبيا؟»

«كلا. أثناء بقائه معنا، زار مع ميغيل أماكن عدة. اعتقد انه شاهد ما يكفي في كولومبيا.»

فكرت سوزان بضرورة العودة الى بريطانيا والاعتراف بفشلها ولكن ما الذي سيحدث لجدها؟ لا بد ان تفي بالوعد الذي قطعته على نفسها.

«ما رأيك في البقاء معنا لأيام يا سينيوريتا؟ نحن على استعداد للترحيب باخت ماركوز في بيتنا.»

«ولكنني لا أستطيع البقاء فترة أطول. يكفي ما سببته من متاعب حتى الآن.»

ثم تذكرت التاكسي الذي ينتظرها في الخارج. ضحك أرفاليز واخبرها انه دفع الاجرة كما انه اتصل بالفندق ليطمئنهم.

حين ابتسمت سوزان لما ذكره عن قلق اصحاب الفنادق. قال أرفاليز :

«الا تصدقين ذلك ؟ تذكري انك في كولومبيا وليس في بريطانيا. في تاريخنا أحداث دموية وبعض الاحداث جرت مؤخراً. اعتقد انه من الافضل لك البقاء معنا وفي صحبة زوجتي وابنتي الى أن أتوصل الى معلومات أكثر عن ماركوز .»

كانت لهجته حاسمة. فكرت سوزان انها اللهجة ذاتها التي يستخدمها عادة اذا ما أسدى نصيحة غير مرغوبة الى أحد المتاجرين معه.

«حسم الامر اذن.»

نهض أرفاليز عن كرسيه، ثم قال:

«استريحي يا سنيوريتا، وسنقوم بالترتيبات اللازمة . اما الآن فان دولوريس ستجلب لك بعض الحساء.»

حياها ثم غادر الغرفة تتبعه ايزابيل وقد ارتسم على وجهها تعبير يدل على تفكير وانشغال.

كان الحساء لذيذا. استغربت سوزان لشهيتها برغم مرور وقت قصير على تخلصها من الآم التقيؤ وحين سمعت أحدهم يطرق الباب ظنت انها دولوريس قادمة لتأخذ صينية الطعام، لكنها دهشت لرؤية ايزابيل بديلا منها.

ابدت ايزابيل اعجابا للسرعة التي استعادت فيها سوزان صحتها، ثم جلست على الكرسي المجاور في وضع يدل على توترها وقلقها.

«هل كل شيء على ما يرام.»

سألت سوزان مقاطعة تعداد ايزابيل للمتاحف والاماكن الممكنة زيارتها اثناء وجودها في بوغوتا.

تساقطت دموع ايزابيل فجأة وهي تجيب:

«كلا. لا أدري ماذا اريد ان اقول.»

«اخبريني ارجوك. وأعد بانني لن أخبر أحداً ما ستقولين. هل تعرفين اين ذهب أخي؟»

«ربما. هذا كل ما استطيع قوله. انا على وشك اخبارك بشيء مخجل. انني احب أخي كثيراً لكنه أناني ولا يرغب في صحبتي، خاصة إذا جاء الى البيت مع أحد اصدقائه فانه يأخذه مباشرة الى غرفته بعيداً عن الجميع، ولكنني لوجود باب يفصل بين غرفته وغرفتي، استطيع سماع محادثاتهم وتعليقاتهم.»

احمر وجه ايزابيل بعد هذا الاعتراف ثم اكملت حديثها :

«انني اشعر بالخجل لذلك الآن، لكنني اعتدت الضحك على ذلك من قبل لاعتقادي بانني اشارك اخي مع اصدقائه اسرارهم.»

«سمعت اذن حديثاً خاصاً بين مارك وميغيل، اليس كذلك؟»

«نعم. وادركت ان والدي سيغضب اذا علم بذلك حيث تحدث ميغيل عن أشياء محرمة.»

«أشياء محرمة؟»

«الزمرد ! حيث ان مناجم الزمرد في كولومبيا هي من أشهر المناجم في العالم وهي مصدر الثروة الوطنية للبلد. ولكن الامر يتحول الى خسارة كبيرة اذا تمّ تهريب الزمرد خارج البلد. هل تفهمين ما أعني؟»

«تهريب ؟ هل تعنين ان مارك وميغيل كانا يتحدثان عن تهريب الزمرد الى الخارج؟»

«نعم وفهمت من حديث ميغيل انه غالباً يقوم بذلك. اذا عرف والدي بالامر فانه سيغضب كثيراً لان القانون بالنسبة الى والدي هو كل شيء وسيعتقد ان ميغيل بسلوكه هذا اساء الى كرامة العائلة.»

«هل تعنين ان ميغيل اقترح على مارك العمل كمهرب؟»

«كلا. بدا وكانه يحذره حيث أن عدداً من الاشخاص مات بسبب الزمرد. انه عمل خطير. واخبره بانه يظن ان سلوكه جنوني ولكن ماركوز أجابه قائلاً:

«لن تظنني مجنونا اذا عدت ومعي لهيب ديابلو»

سألت سوزان:

«ما هو لهيب ديابلو»

«انها اسطورة سمعتها حين كنت طفلة. يقال إن في مكان ما في التلال الشمالية يوجد منجم يحوي من الزمرد ما يساوي الملايين. ويقال أيضاً إن أي انسان لم يعثر على هذا المنجم منذ أيام الدواردو، اي منذ عهد الانسان الذهبي الذي اعتاد تزيين نفسه بزمرد ديابلو .»

« ديابلو، اذن، اسم مكان ما؟»

«نعم، وسمي كذلك لانه مكان الشيطان. الكثيرون يبحثون عن منجم ديابلو والشعلة الخضراء المحترقة. الاّ انهم لا يعودون. يقول والدي ان السبب بسيط. فهو مكان خطر حيث الارض زلقة والانهار ذات تيارات خطيرة وهناك اسماك صغيرة بالملايين تستطيع التهام حصان وراكبه قبل ان يلفظ الراكب صلاته

الاخيرة. كما ان هناك نموراً قاتلة وثعابين كثيرة. اضافة الى كل هذا، هناك رجال أشرار. قد يكون كل هذا صحيحاً ولكن التفسير الاخر للاسطورة هو حراسة المنجم من قبل رموز غامضة.»

ورغم كل ما حاولت سوزان التظاهر به من رباطة جأش، فان رعشة خوف سرت في جسمها كله. كان من السهل القول إن ما ذكرته ايزابيل مجرد هراء لو انها سمعت ذلك في بريطانيا، ولكن، في هذه المنطقة النائية وحيث الكل يعتقد بالأساطير لم يكن سهلاً عليها تجاهل خطورة ما أقدم عليه شقيقها

سألت سوزان:

«وانت تعتقدين ان مارك ذهب الى ذلك المكان المخيف ؟»

«في البداية ظننت انه اصل الفكرة لان اخي نصحه كثيراً. اما لدى سماعي ما قلت عن عدم عودته الى بريطانيا، فاظن بانه نفذ ما تحدث عنه. كما اعتقد بانه أخبر ميغيل عن عودته الى بريطانيا ليريحه وكي لا يدفعه للشعور بالندم لانه أخبره بالاسطورة. اعتقد انه لم يتبادر الى ذهن ميغيل ان مارك سيصدقها.»

«مارك جيولوجي ولا بد انه يعتقد، اذا كان المنجم موجوداً، فمن المحتمل ان يعثر عليه.»

ثم خاطبت نفسها قائلة

«هذا اذا لم يمت قبل ذلك. غرقاً أو قتلاً أو سقوطاً من حافة جبل. الم تقرأي في مكان ما عن وجود عصابات تهاجم المارة في الطرق المهجورة؟»

«ما الذي ستفعلينه سنيوريتا؟»

«لا ادري.»

قالت سوزان في عجز ثم اضافت

«انه ليس لدينا ما يثبت ذهاب مارك أو الجهة التي توجه اليها برغم احتمال ذهابه الى المنجم.»

صمتت سوزان لحظة لتتذكر كلماته التي وجهها الى الجد:

«اذا عدت ذات يوم فانني سأكون غنياً. وسيكون لدي من النقود ما يكفيني

لجعلك تبتلع كل كلمة لفظت بها. لن اعود ما لم أحصل على ذلك.»

لا بد ان مارك ومن خلال ميغيل عرف بوجود منجم الزمرد الذي سيحقق آمانيه، ومن خلاله ايضا عرف كيفيه تهريب الزمرد اذا عثر عليه. انها تعرف عناد مارك وتعرف ايضا ان ذلك صفة متوارثة في العائلة.

ابتسمت سوزان لتطمئن ايزابيل ، ثم قالت:

«علي ان اعود الآن الى بريطانيا، اذ لا فائدة من بقائي. وفي اي حال، ربما عاد مارك الى هناك وما تتحدث عنه الآن هو مجرد وهم. كما انني سابلغ السلطات المحلية عن اختفاء مارك كي تبحث عنه. عدا هذا، لا أعتقد ان في امكاني القيام باي شيء آخر.»

وافقتها ايزابيل ولكن سوزان كادت ان تضعف وتخبرها بحقيقة نيتها في التوجه بنفسها، صباح اليوم التالي الى ديابلو. لكنها تحكمت في مشاعرها خاصة وهي تعلم مقدار خوف ايزابيل من والدها، الأمر الذي يدفعها للبوح بما ستقدم عليه.

أقنعت سوزان نفسها ان ما تفعله هو الشيء الصحيح، وذلك لتجنب عائلة أرفاليز القلق عليها وعلى اخيها. لكنها كانت مقتنعة في اعماقها ان هذا ليس الحقيقة كلها وانها هي الاخرى تحمل عناد العائلة المتوارث بين عواطفها.

انا ذاهبة الى ديابلو، اسرت لنفسها، حتى لو تطلب الامر مواجهة الشيطان نفسه

٢ ـ يتحرك في الظلام

استدار الباص بسرعة كادت ان تدفع سوزان عن مقعدها، الآ أنها سيطرت على نفسها، وكبحت رغبتها في الصراخ. لاحظت ان الركاب معتادون على منعطفات الطريق، حيث واصلت امرأة هندية تغذية طفلها بدون ان تتأثر بما جرى. نظرت سوزان الى تمثال العذراء الصغير والمثبت امام السائق. كما لاحظت أن الركاب والسائق يرسمون اشارة الصليب على صدورهم كلما انحرف الباص او كلّما اقتربوا من منحدر خطير. وشعرت بالتعاطف معهم، الآ أنها لم تستطع منع نفسها من التمني ان يحاول السائق السيطرة على المقود بيديه الاثنين.

ادركت الآن لماذا حدق كاتب الفندق، برعب، في وجهها حين سألته عن الباص، وكيف نصحها باستئجار سيارة بدلاً من ذلك. الآ أنها لم تستمع لنصيحته مفضلة استخدام وسيلة عامة للتنقل وحريصة في الوقت نفسه على عدم تبذير نقودها. ارادت في البداية استئجار سيارة لتقودها بنفسها الآ ان مشاهدتها لسلوك سائقي السيارات جعلها تدرك صواب اختيارها الأخير.

كانت النافذة المجاورة لمقعدها مغطاة بالغبار الآ أنها لم تتضايق بل شعرت بالارتياح لان ذلك منعها من مشاهدة بعض الوديان العميقة والمثيرة للخوف، اضافة الى الافاعي المنتشرة في الطرق.

اي رحلة هذه ؟ انها جنون مطلق. ما الذي تفعله هنا، في باص يقوده سائق نصف مجنون، ويحتل مقاعده ركاب يحملون اعداداً من الدجاج والعنزات ؟

ذكرت نظرات الرعب في عيني كاتب استقبال الفندق حين طلبت منه أن يدلها الى الباص لتسافر الى دبابلو . واكثر الطرق سهولة. حاول جهده ان يثنيها عن عزمها محاولا اقناعها بان تلك المنطقة لا تصلح لزيارة السيدات. ثم حاول اقناعها باستئجار سيارة خاصة حيث ستكون، على الاقل، تحت حماية سائق السيارة. الا أن الملاحظة الاخيرة وما فيها من اشارة الى ضعف المرأة جعلها ترفض الاقتراح.

«في استطاعتي الاهتمام بنفسي. شكرا سنيور.»

أجابت سوزان بوضوح وبرود.

كانت لحظة سادها التوتر الآ انه اقتنع بانها مجنونة، ورأت ذلك الاقتناع مرتسماً على وجهه حين استدار ليتحدث مع زائر آخر. وها هي الآن توافقه على فكرته حيث انها لم تجلس من قبل في مقعد غير مريح كهذا وتخيلت ان الباص تنقصه النوابض والمعدات الأخرى. قررت أنها اذا ما قدر لها اتمام الرحلة فانها ستكون بالتأكيد مقعدة نتيجة الاهتزاز الذي تعرضت له.

اقنعت سوزان عائلة أرفاليز بوجوب عودتها الى بريطانيا للبحث عن منزل هناك. فشعرت ايزابيل بخيبة أمل لانها لم تبق معهم لأيام اخرى، الآ أن سوزان لمست نبرة الارتياح في صوتي السيد والسيدة أرفاليز لقرارها بالسفر لعلها كانت تتخيل ذلك خاصة وانهم كانوا يرغبون في بقائها معهم فترة قصيرة من الوقت، الآ أنها لا تستطيع نسيان ضيافتهم وكرمهم تجاهها.

أحاطت سوزان شعرها الطويل الاشقر بمنديل ملون، وضعت نظارات شمسية كبيرة غطت نصف وجهها. الآ أن هذا كله لم يمنع بقية الركاب من مراقبتها وخاصة لاختلاف بشرتها البيضاء عنهم وايقنت من نظراتهم ان قلة من السواح يأتون الى هذه الجهة من البلاد وخاصة النساء منهم.

تساءلت عما اذا كان مارك قد سلك الطريق نفسها قبلها وحاولت إلقاء بعض الاسئلة على السائق قبل بدء الرحلة، الا أنه نظر اليها بتذمر جعلها تتوقف عن الكلام.

بدا وكأن الباص ينحدر ببطء مما دفع سوزان الى النظر خلال النافذة، فرأت مجموعة أبنية مما دفعها الى الاعتقاد بانهم وصلوا الى أسانكشن. لم تر سوزان أي اختلاف بينها وبين بقية التجمعات السكنية الصغيرة التي مروا بها من قبل. استخدم سائق الباص مزماره ليبعد بعض الاطفال والكبار عن وسط الشارع ثم استدار باتجاه ساحة كبيرة.

كانت الساحة مختلفة حيث بذل المعنيون بعض الجهد لطلاء الجدران وانشاء سوق محلي. لا بد ان السوق هو الموقف النهائي لبيع الدجاج والعنزات، حيث ترجل أصحابها هناك.

واصل الباص، بعد ذلك، مساره ليتوقف امام بناية ادركت سوزان فيما بعد انها فندق اسانكشن الوحيد. نظرت الى جدرانه القديمة والى طلائها المتساقط.فكرت بانها لو منحت الخيار لما اختارت هذا المكان للمبيت ولو لليلة واحدة. ولكن اي خيار امامها الآن ؟ ثم ان هناك احتمالا بان مارك قضى بعض الوقت فيه سيمنحها فرصة لمعرفة اخبار اكثر عنه.

كان مكتب الاستقبال خالياً فوضعت حقيبة ملابسها الصغيرة جانباً وانتظرت قليلاً قبل ان تقرع الجرس الموضوع على المكتب. ما ان فعلت ذلك حتى سمعت صوت ضحك عال ينطلق من مكان قريب مما جعلها تشعر بخوف غريب

«اتمنى لو اشاركهم سماع النكتة.»

قالت سوزان لنفسها ببطء. حينئذ فتح رجل الباب الواقع خلف المكتب وتوقف لوهلة وألقى ملاحظة أخيرة باللغة الاسبانية مما دفع الموجودين في الغرفة الى الضحك من جديد. أحس بوجود سوزان خلفه فتغيرّ التعبير الضاحك على وجهه الى دهشة وصاح:

«سنيوريتا.»

كانت لهجته مؤدبة الا أن سوزان شعرت بالحرج لنظراته المتفحصة والدالة

على عدم الارتياح لوجودها.

سحبت كتاب تعليم اللغة الاسبانية وحاولت افهامه رغبتها في قضاء ليلة في الفندق، الا انه قال:

«انني اتكلم بعض الانكليزية، هل انت انكليزية؟»

«نعم.»

شعرت بالراحة لانها لم تضطر لاستخدام كتابها المعقد.

«انني احاول تعقب انكليزي آخر. انه أخي.»

اضافت بسرعة لدافع لم تفهمه تماماً.

«هل قدم، هذا الاخ، الى اسانكشن؟»

قال الرجل وراقبها بصمت.

«لست متأكدة. اظن ذلك.»

تردد الرجل قليلاً ثم جذب سجل اسماء نزلاء الفندق ووضعه امامها.

«انظري بنفسك يا سنيوريتا. ليس هناك أي انكليزي عداك.»

تفحصت سوزان قائمة الاسماء معتقدة بان مارك ربما لجأ الى تغيير اسمه، الا انها ظنت بانه لن يغير توقيعه. تفحصت ذلك أيضاً ولم تجد اي كتابة مماثلة لخط يد اخيها مما دفعها للاحساس بالمرض لشدة يأسها.

«لا يأتي السواح الى هذه المنطقة عادة يا سنيوريتا.»

كان على وشك مغادرة المكتب حين سألته:

«هل استطيع حجز غرفة لليلة واحدة ؟ كما انني بحاجة الى دليل، اريد ان استأجر دليلاً اذا أمكن.»

«سنيوريتا، انني لا اسمح ببقاء نسوة وحيدات في فندقي.»

شعرت سوزان بضعف لم تشعر بمثله من قبل في حياتها، الا انها حاولت استجماع شجاعتها فقالت.

«بما ان هذا هو الفندق الوحيد في المدينة فانني ارجو ان تستثنيني من قاعدتك لهذه الليلة الا اذا استطعت ان توفر لي دليلاً في الحال.»

«واين تريدين أن يأخذك الدليل ؟ هذا اذا افترضنا وجود مثل هذا الشخص.»

«اريد الذهاب الى ديابلو.»

قالت بسرعة.

وكما لو انها صفعت الرجل فجأة وبقوة، تراجع الى الوراء بسرعة وبدا كأن فكه السفلي قد تحركت من مكانها.

«هذا مستحيل يا سنيوريتا. اين عائلتك ومن هم اصدقاؤك الذين وافقوك على هذه المغامرة المجنونة؟»

قطبت سوزان جبينها وغادرها كل حس بالواقع، ولكن قد يكون هذا بسبب التأثير الذي كان دافعه تراكم الاحداث التي جرت لها في الايام الاخيرة. الا أنها قررت ان تواصل القيام بدورها الذي بدا أسهل من محاولة اقناع الآخرين بصحة ما تقوم به.

كانت خائفة ومذعورة الا أنها لم تظهر أي جانب من مشاعرها.

«انه امر جيّد أن تبدي قلقك يا سنيور ... الا أنه امر غير ضروري. فأنا قادرة على الاهتمام بنفسي كما انني لست بحاجة لاحكامك بصدد افعالي وخياراتي.»

لم تقل الكثير إلا انها أملت ان تكون كلماتها قد اثرت. ففي موقف كهذا فان عليها ان تزن كلماتها بدقة وحذر.

نظرت الى صاحب الفندق وشعرت بانه لم يعد واثقاً من نفسه بل بدا متردداً كأنه ادرك بانه يتحدث مع فتاة مختلفة وأحس بشيء جديد في حديثه معها. أرادت سوزان ان تبتسم لتلك الافكار الا انها ادركت خطأ ذلك وعمقت التعبير الهادىء على وجهها.

«لا بد من وجود شخص يعرف هذه المنطقة جيداً. لا يتوجب عليك الشعور بالمسؤولية تجاه ما اقوم به. عرفني به فقط وسأتكفل انا الباقي.»

نظر اليها الرجل لفترة ثم هز كتفيه:

«هناك رجل يعرف المنطقة. انه فاتاس دي ميندوزا . ولكن هل سيأخذك الى ديابلو ؟ انها مسألة اخرى.»

«هذه مشكلتي وسوف اتكفل بها. متى استطيع الالتقاء به؟»

استعادت قوتها وثقتها بنفسها بعد نجاحها في اقناع صاحب الفندق، وفكرت

أن بامكانها اقناع العالم كله بما تريد.

«فيما بعد يا سنيوريتا. سأخبره بطلبك أولاً. انه مشغول الآن.»

نظر باتجاه الغرفة حيث سمعت من قبل ضحك لبقية الرجال.

«افضل رؤيته حالاً. انها مسألة ملحة وأنا لست مجرد سائحة بل قادمة للبحث عن أخي.»

«وانت تعتقدين أن اخيك توجه الى ديابلو ؟ اذا كان الامر صحيحاً فان لدي فكرة جيدة. ستمر من هنا دورية عسكرية، غداً، أو بعد غد. فاذا تحدثت الى الكابتن لوبيز فانه سيبحث عن أخيك.»

صمتت سوزان للحظة وفكرت في ما قاله. ربما كان من الافضل ترك مهمة البحث عن اخيها للجيش، ولكنها تذكرت ما قالته ايزابيل عن تهريب الزمرد. ماذا سيحدث اذا عثر الكابتن لوبيز على اخيها ومعه الزمرد ؟ بلعت ريقها وقررت أن ترفض ذلك الاقتراح خاصة وانها لم تكن تعرف العقوبة التي سيتعرض لها، إلا انها خمنتها عقوبة كبيرة وثقيلة. تذكرت بعض ما قرأته عن قسوة السجون الكولومبية، كما ان اعتقال مارك سيؤدي الى وفاة جدها.

عليها، اذن، أن تتقبل فكرة البحث عن اخيها والعثور عليه بنفسها وبمساعدة الدليل. آملت ان يكون الدليل رجلاً يعرف كيف يحافظ على السر اذا ما وجدا مارك وفي حوزته الزمرد.

«ليس لدي وقت كاف لانتظار الجيش، ثم انك غير متأكد من وقت وصولهم وقد يتأخرون. يجب أن التقي بهذا الدليل فوراً، إذ يجب اجراء بعض الاستعدادات قبل التحرك مباشرة.»

تركت حقيبتها الى جوار المكتب ثم خطت خطوات باتجاه الباب الا أنه بقي ساكناً في مكانه وخاطرت بالاستدارة الى الوراء والقاء نظرة على وجهه الساكن بشكل غريب وشعرت بالرغبة في الضحك. كل ما عليها الآن فعله هو اقناع الدليل بان يأخذها الى ديابلو . فتحت الباب وخطت الى داخل الغرفة.

اتقنت اداء دورها كممثلة الى حد كبير حيث توقفت في اللحظة الملائمة في انتظار نتائج ما فعلت. كان جو الغرفة مثقلاً بالدخان ولم تستطع الرؤية في

اللحظات الاولى ثم اكتشفت وجود ستة رجال يجلسون حول مائدة مستديرة موضوعة في وسط الغرفة ومغطاة بشرشف اخضر. شعرت سوزان بمرارة في حلقها. اذن هذه هي الصحبة التي تردد مالك الفندق في مغادرتها.

نظرت الى الرجال متفحصة إياهم. بدا الاستغراب واضحاً على وجوه بعضهم والاستحسان على وجوه البعض الآخر. الآ أنها رأت الاستهزاء في وجه واحد تجاهلته اولاً ثم نظرت اليه ثانية كما لو انها لم تصدق ذلك الانطباع في المرة الاولى.

كان اصغر من اصحابه، في الثلاثين من عمره على الاغلب، بعينين سوداوين وشعر اسود وبشرة داكنة، كالبقية. لوجهه ملامح صقر عنيف، زاده من ابراز حدة ملامحه الربطة السوداء التي غطت عينه اليسرى.

نهض الرجل القريب من الباب عن كرسيه وتقدم اليها مبتسماً:

«اقتربي، تعالي، هل ترغبين في صحبتنا؟»

نطق تلك الكلمات بلهجة اميركية. تغامز البقية فيما بينهم وتحدثوا بالاسبانية وبدأوا الضحك من جديد.

الآ أن رجلاً أعور لم يشاركهم الضحك. نظرت اليه سوزان مرة اخرى. كان يرتدي ملابس سوداء، قميصه مفتوح وظهر صدره القوي. رن في رأسها صوت ايزابيل وهي تقول:

«قطاع طرق، رجال اشرار.»

شعرت أن البقية مسالمون، ربما كانوا مشاكسين، الآ أنهم أساساً اناس مسالمون، أمام الرجل صاحب الربطة الذي بدا مختلفاً. اعتقدت بانه احد قطاع الطرق وتخيلته، في القرون الماضية، مرتدياً ملابس من مخمل أسود، حاملاً في يده سيفه الملطخ بدماء الجنود المسالمين. ولا شيء يمنعه من تحقيق حلمه. في استطاعتها تخيله على سطح سفينة قراصنة تجوب البحار بحثاً عن الذهب.

«هل تريدين أن تشربي شيئاً؟»

سأل الرجل الواقف قرب الباب.

ابتسمت بأدب وهي ترفض أي شيء يقدم اليها. فكرت انه قد يكون دي

ميندوزا التي تبحث عنه.

ابتسمت مرة اخرى ولكن بشكل مختلف هذه المرة محافظة على المسافة الفاصلة بينها وبينهم، عدا الرجل صاحب الربطة السوداء، الذي تجاهلها منذ البداية.

ترى ما الذي يفعله هنا؟ انه مختلف عن البقية. من الواضح انهم جميعاً رجال اعمال محليون اجتمعوا لقضاء بعض الوقت سوية، ما عداه. لعله مقامر محترف! ربما، خاصة اذا كانوا يمارسون مثل هذه الاشياء في كولومبيا. انتبهت الى كمية النقود الموضوعة امامه على الطاولة. فكرت انه لا بد يغش في اللعب، ثم ادركت سخافة افكارها. ها هي واقفة هناك تتأمل رجلاً غريباً وتضيّع وقتها الثمين.

«اريد ان التقي بفاتاس دي ميندوزا وأود التحدث معه بشكل شخصي.»

قالت في صوت واضح.

انتظرت بضع لحظات وتوقعت الاجابة من احد الرجال. الآ أن أياً منهم لم يتحرك من مكانه. شعرت بخوف يسري في اعماقها.

«انه هنا، اليس كذلك؟»

اهتز صوتها قليلاً وكأنما ادركت صحة مخاوفها، كما ادركت صيغة الجواب الذي ستتلقاه. تمنت لو انها على مبعدة مليون ميل من هذا المكان. قال الرجل الواقف إلى جوارها:

«ألا أستطيع الاحلال في محله سنيوريتا ؟ فاتاس انك الفائز دائماً.»

نظرت عبر الطاولة الى الرجل، رأته يلوي شفته السفلى تعبيراً عن الاستهزاء، لم يحاول، في الوقت نفسه، تغيير وضعه المريح بل نظر اليها نظرة متطلعة أشعرتها بالحرج.

لا بد ان مالك الفندق رجل مجنون، فكرت سوزان، والآ لما اقترح اتخاذ هذا الرجل كدليل لها. كيف تصوّر انها ستتبعه في مناطق مجهولة. كيف تتبع رجلاً يبدو وكأنه مارس كافة الجرائم المعروفة!

كان يقرأ افكارها، ابتسم الرجل فجأة، عارضاً اسنانه البيضاء. فكرت أنه رجل جميل ولا يمكنه، لذلك، أن يكون عنيفاً مع المرأة.

وقف حينئذ، وبدا أطول من بقية الرجال في الغرفة. جسده مرن مرونة النمر

ارتدى حزاماً عريضاً في وسطه نجمة فضية. وقلادة لم تظهر بوضوح لاختفائها في شعر صدره الكثيف.

تذكرت كيف صممت على العثور على أخيها حتى لو كلفها مواجهة الشيطان، وادركت انها في مواجهته الآن وسرت في جسدها قشعريرة الخوف.

اتسعت ابتسامته وادركت انه أحس بردة فعلها وانه يمتع نفسه الآن بمراقبتها. أجبرت نفسها على الوقوف بسكون في مكانها حين اقترب منها وقال:

«انا فاتاس دي ميندوزا. ماذا تريدين مني؟»

رغبت ان تجيب بان المسألة كلها عبارة عن خطأ فادح، الا انها ادركت في الوقت نفسه ان هذا سيظهرها بمظهر امرأة حمقاء امام مجموعة رجال، وهذا ما لم ترغب فيه.

«ارغب في شراء خدماتك يا سنيور.»

ادركت، بعد ان نطقت تلك الكلمات، خطأ التعبير الذي ارتكبته ولكن بعد فوات الأوان أجاب:

«انني اقدر طلبك ولكنني لست معروضاً للبيع.»

ضحك اثنان من الموجودين الاّ انه كان ضحكاً عصبياً. لاحظت سوزان ذلك حتى من دون النظر اليها وشعرت بحرارة الارتباك تسري في جسمها لانها اضطرت أن تقول شيئاً لم ترغب في قوله.

«لم أعن ذلك.»

ورغم ارتباكها، رفعت سوزان ونظرت اليه باستقامة:

«انني بحاجة الى دليل اعتمد عليه تماماً. لقد اوصاني احدهم باستئجارك.»

أحست مرة اخرى بالقلق يسود الغرفة.

«انت دليل، أليس كذلك؟ أخبرني مالك الفندق..»

«هل تحدثت مع راميريز؟ انه محق. انني اعرف هذه المنطقة أحسن من أي رجل آخر. نصيحتي لك هي العودة الى بوغوتا والانضمام الى احدى الرحلات السياحية الجماعية. ذلك هو المكان الملائم للمرأة.»

«كلا. انتظر.»

صرخت قبل ان تدرك ما الذي ستفعله ثم مست ذراعه قبل ان يتحرك مبتعداً. توقف ونظر اليها. فكرت:

كيف يجرؤ على النظر الي بهذه الطريقة؟ صحيح ان لهجته افضل من البقية، الاّ انه مجرد دليل، وعليه ان يتقن عمله ليعيش.

«من الافضل أن نناقش هذا الموضوع بشكل خاص. انني مستعدة لدفع المبلغ الذي تطلبه إذا كان هذا ما يقلقك.»

«ليس هذا ما يقلقني.»

أجاب ووجهه خال من اي تعبير. ثم أضاف:

«انك سيدة عنيدة. من ناحية اخرى لا يتوجب عليك عرض الدفع ما لم تعرفي السعر المطلوب منك اولاً.»

«سيكون هذا جزءاً من النقاش وأرجو ان تحدثني عنه.»

اصغت لنفسها وهي تتحدث بلهجة ضعيفة لم تسمعها من قبل. ولم يكن ذلك جزءاً من مخططها.

«وهل تظنين ان قوة اقناعك ستكون فعالة أكثر اذا كنا وحدنا؟»

سألها وضحك من رأى احمرار وجهها من الخجل:

«حسناً. سنتحدث اذا كنت تعتقدين ان ذلك سيغير الامور، ولكن فيما بعد.»

رفع يده ثم ربت على كتفها بطريقة دفعتها الى الانكماش كما لو انها تلقت صفعة. استدارت وغادرت الغرفة وصفقت الباب خلفها باصرار وهي تسمع ضحكات الرجال خلفها.

كان مكتب الاستقبال خالياً الاّ انها سمعت أصواتاً خلال باب الغرفة المقابلة، نصف المفتوحة. كانت غرفة كبيرة ذات مجموعة من المناضد ووجدت فيها راميريز وهو يجفف بعض الصحون والاقداح.

ظهر مندهشاً لرؤيتها ولم تعرف نوع الاستقبال الذي ستلقاه - ترى هل أصغى الى ما جرى في الغرفة الاخرى من حديث ونقاش؟ سأل راميريز مباشرة:

«هل عقدت صفقتك يا سنيوريتا؟»

«ليس تماماً.»

أجابت بلطف. ثم اضافت:

«سناقش الامر فيما بعد. اعتقد انني مضطرة للبقاء هنا بعض الوقت.»

نظر اليها للحظات. ربما كان يسأل نفسه عن سبب عدم عودتها الى بوغوتا معترفة بفشلها.

«هل قال السنيور ميندوزا إنه سيتحدث معك فيما بعد؟»

«نعم، ان أوضحنا بعض الأمور المعلقة. بدا وكان لديه فكرة غريبة عن سبب اهتمامي بخدماته ومعلوماته. انه واثق تماماً من قابلياته الخاصة.»

اضافت بلهجة محايدة، الاّ انها ادركت ان ما قالته خال من الصحة وان ميندوزا لم يكن رجلاً متوهماً قدر ما كان واثقاً من نفسه.

«ان لميندوزا اسبابه الخاصة. كانت هناك امرأة اميركية جاءت مع زوجها لمشاهدة هذه البلاد. ثم عادت بعد ذلك لوحدها لتذهب مع فانس الى تلال وقد قضيا فترة طويلة معاً. كان شعرها أشقر مثل شعرك يا سنيوريتا.»

«أؤكد لك ان هذا التشابه هو الوحيد بيننا. هل استطيع، الآن، ان أرى غرفتي. اشعر بالتعب الشديد وانا بحاجة ماسة الى الراحة.»

«نعم يا سنيوريتا.»

لم تكن الغرفة كبيرة، بل نظيفة والفراش مغطى ببطانيات هندية ذات ألوان بهيجة وناعمة. تذكرت سوزان انهم كانوا يبيعون بعض البطانيات الشبيهه في السوق القريب من الفندق وكيف انها رغبت في شراء واحدة الاّ انها أجلت الأمر.

كل ما أرادته هو الاسترخاء في الفراش ونسيان رحلة الباص. توجهت اولاً الى الحمام الموجود في نهاية الممر، اخذت حماماً وازالت عن جسدها التراب والتعب. شعرت بالراحة وهي تعود الى الغرفة لترتدي ملابس نظيفة بعد ان اغلقت الباب والشبابيك لتتخلص من الضجة في الخارج، اخيراً تمددت على السرير.

رغم تعبها الشديد لم تستطع سوزان النوم حيث واصلت صور مشتته اجتياح ذهنها : اشجار تحيط بنهر وظلمة الجبال خلفه، رجل يرتدي ملابس سوداء،

يمتطي صهوة جواد اسود ظهر وكأنه جزء منه. ثم امرأة شقراء واقفة بين الاشجار تمد ذراعيها الى الامام حيث انحنى الرجل ورفعها من ذراعيها وشعرها يحيط به.

تقلبت سوزان في فراشها بقلق محاولة التخلص من تلك الصور، الاّ أن الحصان واصل اقترابه منها حتى استطاعت أخيراً رؤية ملامح الفارس، وراقبت المرأة الشقراء وهي ترفع ذراعيها محاولة جذبه اليها.

مدت سوزان يدها لتحاول منعها لانها لم تكن ترغب أن ترى كل ذلك، الاّ ان حركتها استدعت انتباه الفارس، فنظر باتجاهها وكذلك المرأة الشقراء. رأت سوزان ان الوجه الذي استدار نحوها، والمغطى بخصلات من الشعر الاشقر، كان وجهها هي.

صرخت، ثم تلاشت الصور لتجد نفسها جالسة في الفراش، في الغرفة الصغيرة ويدها تضغط بقوة على صدرها. كان في مستطاعها رؤية نفسها في المرآة الموضوعة في الجهة الثانية من الغرفة. قالت لنفسها كنت احلم اذن.

شعرت بالارتياح لان ما حدث كان مجرد كابوس وليس صوراً تعمدت اختلاقها، ثم التقطت ساعتها الذهبية من على المنضدة المجاورة للسرير. اكتشفت، لدهشتها الشديدة، انها نامت اكثر من ساعتين.

نهضت من فراشها وارتدت بنطالها البني مع قميص بني غامق. شعرت انها بحاجة الى شد شعرها بدلاً من تركه مسدلاً على كتفيها. التقطت مشطاً وجدته في حقيبتها وربطت شعرها باحكام. أحست ان هذه التسريحة تمنحها شكل امرأة اعمال اكبر سناً من عمرها.

علقت حقيبتها الجلدية على كتفها ونزلت الى الطابق الارضي. كان المكان هادئاً جداً فتوجهت الى الغرفة التي كان فيها الرجال. فتحت الباب. لم يكن هناك احد. الطاولة مرتبة والكراسي موضوعة قرب الجدار.

شعرت سوزان بالغضب وظنت انه انتهز فرصة ذهابها الى غرفتها ليذهب في حال سبيله، وبعد ان ادركت انها افضل وسيلة للتخلص منها بدون الدخول معها في أي نقاش حول الموضوع.

وقالت لنفسها:

«حسنا، ليذهب الى الجحيم. قد يكون افضل دليل في المدينة. الا انه وبالتأكيد ليس الوحيد في أسانكشن.»

وعدت نفسها ألا تدع هذا الحدث يؤثر على عزيمتها بل اقنعت نفسها بانه ربما كان من الافضل التخلص منه، خاصة بعد الحلم الذي رأته. اذا كان هذا تأثيره عليها بعد فترة قصيرة من معرفتها به، فما الذي سيحدث اذا ما قادها في رحلتها؟

استدارت وغادرت الفندق. كان السوق مزدحماً وفي زاوية من الساحة جلس عدد من الموسيقيين يعزفون لبعض المارة. طافت حول العربات وشاهدت الى جانب البطانيات الملونة القبعات المدورة التي اعتاد الهنود ارتداءها.

فكرت بانها ستحتاج قبعة اذا ما بدأت رحلتها ولكنها ارادت قبعة أعرض وأقل ارتفاعا من المعروضة للبيع. في عربات اخرى عرض الباعة الخضار والفاكهة مغطاة بمجموعة من حشرات المنطقة. مما دعا سوزان الى الاستدارة والتظاهر بالنظر الى شيء آخر مؤكدة لنفسها بان الاحوال قد تكون اكثر بدائية في ديابلو.

كانت جائعة وفكرت بانها قد تحصل على وجبة طعام في الفندق الا ان صاحبه لم يذكر شيئاً عن ذلك. استطاعت ان تشم رائحة طعام في مكان ما، وربما كانت تتخيل ذلك. بعد لحظات عرفت الجواب : ففي نهاية السوق عثرت على ما يشبه مطبخا مفتوحا للجميع. لم يكن المظهر صحياً بالتأكيد. الا انها لم تكن في حالة تناقش فيها الاوضاع الصحية، خاصة وان مظهر الدجاج المشوي لم يدع امامها أي فرصة للتردد، فاشترت فخذ دجاجة وتجولت وهي تأكل. لاحظت ان الجميع يفعلون ذلك ، مما دفعها الى الاقتناع بانهم لن يموتوا جميعاً من الاصابة بالجراثيم.

توقفت امام عربة تباع فيها الادوية الهندية، ذات الالوان الجذابة والمزينة بالتطريز اليدوي الجميل، حين سمعت صوتاً خلفها يقول:

«سنيوريتا.»

استدارت ورأت رجلاً قصيراً يرتدي بدلة بيضاء ضيقة. كان وجهه منتفخاً ربما بتأثير شاربه الاسود الطويل. وواصل بحركة عصبية مسح جبينه بمنديله الملون.

«هل السنيوريتا بحاجة الى دليل ؟ انا دليل جيد وسأخذك الى اي مكان ترغبين فيه.»

حدقت سوزان في وجهه بفرح، خاصة وانه كان مختلفاً عن دي ميندوزا. انه قصير وسمين وليس في مظهره ما يجذب الاهتمام.

قالت:

«نعم، انا بحاجة الى دليل، ولكن كيف عرفت ذلك؟»

«أخبرني السنيور راميريز بذلك في الفندق.»

«حسناً، اذن.»

فكرت أن راميريز بذل جهده للتخلص منها في اسرع وقت ممكن.

اضافت قائلة:

«اريد الذهاب الى مكان يدعى ديابلو.»

توقفت بعد ان نطقت باسم المكان وتوقعت انه سينظر اليها باستغراب، الا ان ذلك لم يحدث، بل كل ما قاله كان:

«نعم، يا سنيوريتا. سأنفذ كل ما تريدين. متى ترغبين بدء الرحلة؟»

«غداً. اذا أمكن.»

اجابت ذلك وقد غلبتها الدهشة.

«سأعد كل شيء. هل تستطيع السنيوريتا ركوب الحصان؟»

«نعم، ولكنني فكرت باستئجار سيارة جيب و...»

«كلا. لا تصلح سيارة الجيب للرحلة. الطريق وعرة، كما اننا قد نصادف أماكن حيث الحصان افضل فيها من السيارة. اسمي كارلوس أرنالدز.»

«حسنا جداً يا كارلوس.»

لم تكن سوزان تريد مناقشته، اذ انه يعرف المكان احسن منها بكثير. سرت لانها وجدت بنطلوناً من الجينز بين ملابسها وتذكرت أنها رات زوجاً من الجزم الجلدية معروضاً للبيع في احدى العربات، فتوجهت لشرائه.

حين عادت الى الفندق كانت مسرورة جداً. قد لا يكون كارلوس وسيماً الا انه يبدو كفوءاً. توجها بعد لقائهما الى احد المقاهي حيث اتفقا على اجرته والنفقات

التي سيصرفها لشراء المعدات الضرورية ولاستئجار الاحصنة اللازمة.

قلقت قليلاً حين ناولته النقود لشراء المعدات وفكرت بانه قد يأخذ النقود ويختفي. الاّ ان مظهره وسلوكه أثبتا عكس ذلك. اكد لها بانه سيشتري ما هو ضروري فقط وسيجلب بها الايصالات اللازمة.

شربا الشاي معا وتمنيا لبعضهما رحلة سعيدة وناجحة.

لم تخبر سوزان كارلوس عن غرض الرحلة وفضلت ايهامه بانها سائحة ترغب في امتاع نفسها باي طريقة كانت، واعتقدت ان الوقت لم يحن بعد لاخباره الحقيقة وانها ستحاول ذلك بعد ان تبدأ رحلتها. شعرت ان في امكانها ان تثق به.

مرة اخرى كان مكتب استقبال الفندق خالياً. ورغم انها قرعت الجرس، الا انها لم تلق اي جواب.

بدلاً من الانتظار، مدت يدها وتناولت مفتاح غرفتها من مشجب المكتب. واذ صعدت الى غرفتها دهشت لسرعة حلول الظلام في الخارج فقد انيرت المصابيح في الاسواق وتلاشى صوت الموسيقى تدريجياً.

بدت السماء مخملية في لونها النقي والتف بعض الناس حول الفرقة الموسيقية مشكلين حلقة راقصة. توقفت سوزان وراقبتهم لفترة من الوقت الاّ انها شعرت، اثناء ذلك، بوحدة غريبة. ساهم في ذلك اختلاف لون بشرتها وشعرها وتذكرت التحذيرات التي تلقتها أثناء وجودها في فندق بوغوتا عن مهاجمة بعض قطاع الطرق للسواح وكيفية وقوعهم طريدة سهلة تحت رحمتهم.

فتحت باب غرفتها ودخلت بعد أن أغلقتها باحكام. انتابها حالاً الاحساس بأن شيئاً ما حدث في غرفتها أثناء غيابها. شعرت بالخوف يشل مفاصلها. عرفت ان هناك شخصاً آخر في الغرفة. دلت على ذلك رائحة السيكار وحركة بطيئة في الظلام

تقلصت عظلات جسدها. امسكت الجزمة باحكام. قد لا يكون ذلك سلاحاً فعالاً الاّ انه كان كل ما كانت تملكه في تلك اللحظة. شعرت انها حتى لو صرخت فان احداً لن يسمعها

سمعت الحركة مرة ثانية، تلاها أزيز نوابض السرير.

ترى هل تخيلت ذلك، وهل دخلت غرفة اخرى غير غرفتها؟

اذا كان الامر كذلك، فان كل ما تمنته هو ان يكون الموجودون في الغرفة نائمين وستحاول مغادرة الغرفة بكل هدوء.

تذكرت ملاحظات راميريز عن النساء الوحيدات. ترى هل ارتكبت خطأ كبيراً بمجيئها لوحدها؟

تلمست طريقها في الظلام لتحاول فتح الباب حين سمعت صوتاً ساخراً جمّد الدم في عروقها:

«هل ستقفين هكذا في الظلمة طوال الليل؟»

ثم سمعت صوت ضغط زر المصباح المجاور للسرير. ووجدت سوزان نفسها وهي تحدق في وجه فاتاس دي ميندوزا .

٣ - الشبح

كان منصداً على سريرها، في وضع مريح، ويدخن سيجاراً. سألت سوزان بالحاح:

«ما الذي تفعله هنا؟»

«يا لها من لهجة. ما الذي حدث للسيدة الهادئة التي التقيت بها منذ فترة قصيرة؟»

فتحت الباب بقوة وصرخت:

«اخرج من هنا حالاً.»

«يقول رجال بلدك ان للمرأة حقاً في تغيير رأيها، أليس كذلك ؟ ثم هل يجب أن تتصرفي بطريقة معاكسة تماماً. منذ ساعات كنت ترغبين بالحديث معي في خلوة وها انا مستعد لذلك بينما تحاولين، الآن، التخلص مني. ان سلوكك غير ودي.»

«كيف دخلت الغرفة، خاصة واني اغلقتها قبل مغادرتها ؟»

« راميريز اعطاني المفتاح، بالطبع.»

«آه. بالطبع.»

اجابت بتهكم. واضافت:

«لم يستدع الامر استغرابه بل اعطاك المفتاح لتستطيع دخول غرفة نوم أحد نزلاء

فندقه.»

اتسعت ابتسامته وهو يجيبها:

«لا شيء يثير الاستغراب في هذه الظروف.»

شعرت سوزان بالغضب يجتاحها. في امكانها ان تغادر الغرفة وتتركه لوحده، كما في امكانها مواجهة كل التحديات التي يواجهها بها. الا أنها أحست بانها مشاولة الارادة والتفكير امام هذا الرجل. فقد كانت معجبة به الى حد كبير. اخيراً تحدثت في ثنايا نفسها وفكرت ربما كان يتصرف بهذه الطريقة لانه يظن بانها بحاجة ماسة الى خدماته كدليل الى حد يجعلها ترضخ لكل طلباته.

حسنا، انه على وشك مواجهة غلطة. ولكن ليس الآن. فربما تستطيع ارضاء غروره اولا لتهيؤه للمفاجأة الكبرى حين ستخبره بانها ليست مستعدة حتى للذهاب معه حتى الى نهاية الشارع.

«انا مدينة لك بالاعتذار يا سنيور. ربما كان الامر عكس ذلك. انها لمفاجأة ان أجدك في غرفتي. اعرف انك ستتحدث معي فيما بعد. الا انني لم أتوقعك في هذا الوقت المتأخر.»

ابتسمت وهي تلاحظ الدهشة على وجهه الاسمر وفكرت سوزان وهي تواصل النظر اليه انها ليست المفاجأة الوحيدة التي ستتلقاها هذه الليلة.

«هل اقلقك التأخير؟»

سألها وهو يلتقط سيجاره

«كلا.»

أجابت وهي تعرف انها تكذب. ثم سحبت الكرسي الموضوع قرب طاولة الزينة. جلست على مبعدة من السرير. الامر الذي دفعه الى الابتسام من جديد وقال:

«مع ذلك يا سنيوريتا. ليس هناك ما تخشينه. فكما اخبرتك انا لست معروضة للبيع. كما انني لا ارغب في شراء شيء او الاستحواذ عليه بالقوة.»

«كم هو رائع ان تحاول طمأنتي.»

قالت سوزان بلطف.

«لو كنت محلك لما شعرت بمثل هذا الاطمئنان. فلو قررت بأنني أريدك لا اعتقد بانك ستعارضينني.»

«هل تعتقد هذا فعلاً؟»

«نعم يا سنيوريتا.»

اجابها بهدوء، ثم اضاف:

«انا اعتقدت ذلك فعلاً.»

شعرت سوزان بالغضب في داخلها لهدوئه وثقته بنفسه. الا أنها لم ترغب في اظهار غضبها كما انها شعرت بالغضب للطريقة التي واصل فيها مراقبتها وخاصة تحديقه فيها. شعرت برغبة ملحة في تغطية نفسها، الا انها سيطرت على نفسها : فمثل هذا التصرف قد يكشف عن مخاوفها، الامر الذي لم ترغب في الاعتراف به حتى لنفسها.

«كنت على وشك النسيان بأن لك رغبة خاصة مع الشقراوات، أليس كذلك ؟ لو كنت في محلك لما قلت ...»

أطفأ سيجاره في المنفضة الموضوعة على الطاولة وقاطعها قائلاً:

«يبدو ان راميريز لم يضيّع وقته.»

شعرت سوزان بضجره من الحديث فادركت أن الشقراء الاميركية كانت حدثاً قديماً وان دي ميندوزا رجل لا يعيش على الذكريات.

تمطى بجسده بكسل جاذباً انتباهها. أضاء المصباح الصغير قلادته الصغيرة.

«تحدث راميريز عنك ايضاً. أخبرني انك تريد الذهاب الى ديابلو بحثا عن أخ لك؟»

«نعم.»

قطب جبينه متسائلاً:

«لم انت في عجلة من امرك، خاصة وانه أخبرك عن دورية الجيش ؟»

«اريد ان أعثر على مارك بنفسي ولا أرغب بتدخل اي شخص آخر.»

أجابت سوزان وهي تسمع دقات قلبها المتسارعة.

كان يراقبها من جديد، ولم تدر لماذا انتابها الاحساس بانه يستطيع الرؤية

بعين واحدة اكثر من اي انسان آخر بعينيه الاثنتين.

«انني اتساءل لماذا ؟ ولا تعنيني الاجوبة الجاهزة. أخبريني يا سوزان هل لمارك علاقة ما بالكوايكرز؟»

«لا افهم ما تعنيه.»

اجابت وهي تعصر يديها بقوة.

«حقا ؟ سأوضح الامر لك اذن. كوايكرز هم مجموعة من حفاري المناجم اللاشرعيين : رجال ونساء واطفال يبحثون عن طيب الثروة الأخضر في قنوات تنهار عليهم، صخور تسحقهم وانهار تغرقهم. انهم، جميعا، يحلمون بثروة ستكون لهم وحدهم. ولكن هل تعرفين عدد من انتهى منهم في شوارع بوغوتا مقتولاً ضحية لما يملك ؟ لذلك من الافضل لك إن تخبريني الآن اذا ما كان مارك يبحث عن الزمرد في ديابلو.»

«اخي يعمل كجيولوجي وهو في رحلة تنقيب خاصة.»

قالت اخيراً:

«لا اعتقد انه يبحث عن الزمرد، والسبب الوحيد الذي يدفعني للبحث عنه هو رغبة جدي المريض في رؤيته.»

فكرت سوزان : ربما كانت هناك مكافأة لمن يلقي القبض على مهربي الزمرد وربما كان دي ميندوزا أحد الباحثين عن هذه المكافآت. اذ من الواضح انه لا يعتمد في معيشته على عمله كدليل فقط فقد اكتشفت من المبلغ الذي طلبه منها كارلوس ، انه غير كاف حتى لشراء قميص له فكيف يستطيع اذن توفير نفقاته واختيار ملابسه الغالية، ما لم تكن هدية من زبائنه الذين ارضى رغباتهم وطموحاتهم.

خاطبت سوزان نفسها بمرارة.

«جيولوجي ؟ انه اذن خبير في معرفة اماكن الزمرد.»

«اعتقد ذلك.»

اجابت سوزان وهي تتمنى انتهاء المحادثة.

«واختيار حقل ابحاثه في ديابلو ؟ انه اختيار غريب حقاً.»

«كان له صديق جيولوجي في الجامعة، وربما ذكر له اسم المنطقة واقترح اجراء اجراء التنقيبات فيها.»

«ربما كان الامر كذلك، وهذا بالضبط ما يثير مخاوفي.»

ارادت سوزان ان تنهي حديثها عند هذا الحد وشعرت بانهماكها في مسار لم تخطط له. ثم تذكرت انه خاطبها باسمها، فكيف عرف ذلك ؟ انها لم تذكر اسمها لاي شخص في المنطقة.

«كيف عرفت اسمي؟»

سألت فجأة غير مكترثة باعتقاده انها ربما تحاول تغيير موضوع حديثها.

«بينما كنت في انتظار عودتك، متعت نفسي بقراءة تفاصيل جوازك الموجود هنا بجوار سريرك، حيث وجدت المعلومات مسلية والصورة، صورتك، جميلة. لكنني بحثت عبثاً تحت بند «العلامات الفارقة» عن أشياء تميزك.»

لم تستطع سوزان الاجابة، اذ أحست بانها تحولت الى قطعة حجرية.

«أحست أنك انزعجت لتأخري مع أنني جئت الى غرفتك في وقت مبكر مستخدماً المفتاح الاحتياط للغرفة. كنت نائمة بهدوء وبشكل جميل الى حد انني لم أستطع ايقاظك.»

لم تكن غرف المسرح والكواليس الخلفية خصوصية بل مشتركة لجميع العاملين في المسرح حيث يغير الممثلون ملابسهم. لم تكن سوزان فتاة تخجل من تغيير ملابسها امام الآخرين عند الضرورة وتلافياً للتأخر في أداء دورها، ولكن احساسها بانها كانت معرضة للمراقبة وهي نائمة في سريرها، دفعها للشعور بخجل لم تحس بمثله من قبل.

«شكراً لانك لم توقظني على الاقل. الآن ارجو ان تصغي لطلبي وتغادر الغرفة حالاً.»

«يبدو انك نسيت يا سنيوريتا حاجتك اليّ.»

هزت رأسها ببطء واحست بلذة الانتصار وهي تجيبه:

«شكراً. كلا لست بحاجة الى خدماتك حيث قمت باجراء الترتيبات الضرورية بدونك.»

نهضت واقفة وقالت:

«انك لست الدليل الوحيد في اسانكشن يا سنيور دي ميندوزا . وفي هذه الظروف أشعر بالأمان اكثر مع شخص آخر. والآن ارجو ان تغادر غرفتي حالاً وان تختفي عن ناظري الى الابد.»

وقف ساكناً فجأة، وادركت انها استطاعت السيطرة على الموقف وشعرت بفرحة كبيرة تجتاحها. ها هو السنيور دي ميندوزا القوي الشخصية، وصاحب الجاذبية الطاغية يجد من يرفضه أخيراً. انه في وضع لا يحسد عليه.

تقدم نحوها ببطء واحست بغضبه في كل خطوة خطاها نحوها. طلبت منه مغادرة الغرفة الا انها أحست بالحاجة الى الهرب والابتعاد عنه اذ ظهر من حركاته انه سيطالبها بالاعتذار لكبريائه المجروحة ولم ترغب هي في معرفة ما سيريده. أمسك بذراعها. تماسكت لتخفي صرخة الالم التي انطلقت من فمها.

«من هو الرجل الذي استأجرته؟»

سأل بهدوء متعمد، وقال:

«اخبريني.»

«اتركني، انك تؤلم ذراعي.»

وسأفعل اكثر اذ لم تخبريني بما اريد. من هو الذي استأجرته ليأخذك الى دبابلو؟»

«لن أخبرك بأي شيء.»

علمت سوزان بان قبضته ستترك بعض العلامات على ذراعها وشعرت بانها ستكره تلك العلامات كذكرى في الايام المقبلة.

«اذا كان ما تفعله تعبيراً عن قوتك، فالامر كله لا يهمني لانني لا استجيب عادة للعنف.»

«ما هو الشيء الذي تستجيبين له اذن؟»

سألها وهو يجذبها نحوه. ارادت التراجع لتحمي نفسها الا انها فقدت توازنها. كان لذراعيه قوة قضبان السجن.

وكانت الكلمات الاخيرة له وهو يغادر غرفتها:

«عزيزتي، ذات يوم قد تتعلمين كيف تكونين امرأة.»

لم تكن الخيول التي استأجرها كارلوس للرحلة جميلة الا انها كانت قوية، وهذا هو المهم في اختياره لها لرحلة في منطقة وعرة.

هكذا كانت سوزان وهي تمعن النظر في تلك الخيول.

ابتدأت الرحلة عند الفجر وبمرور الوقت أحست بالتعب يسري في اماكن من جسدها. الاّ ان تفكيرها في نهاية الرحلة واساها قليلاً اضافة الى انه أنساها الاضطراب العاطفي الذي تعرضت إليه في الليلة الماضية. حيث لم تستطع النوم جيداً ونهضت في الصباح متثاقلة ومتعبة. توقعت ان يسألها راميريز بعض الاسئلة حين توجهت لدفع الحساب، الا انه لم يعلق بأي شيء، لا على مغادرتها ولا على اختيارها دليلاً لرحلتها. رغبت في تأنيبه لاعطائه مفتاح غرفتها الى ميندوزا . الاّ انها فضلّت الصمت وتجنب اثارة المتاعب.

حذّرها كارلوس ألاّ تجلب الاّ ما هو ضروري، وهكذا اختارت بنطالها الجينز مع سترة تتناسب معه، ووضعت كل شيء آخر في جيب السرج بينما تركتْ بقية أمتعتها في الفندق لتأخذها عند عودتها من الرحلة. وحين اخبرت راميريز عن نيتها، ابتسم بصمت وهز كتفيه اشارة لعدم اقتناعه بعودتها من الرحلة اطلاقاً، فشعرت بالخوف ينتابها من جديد رغم حرارة الجو.

كان الجو حاراً وازدادت حرارته كلما تقدم النهار. وواصلا سيرهما في منحدرات اسانكتش وابتعدا تدريجياً عن الطريق المعبّد الى دروب ترابية تتبعا فيها آثار اقدام من سبقهما. الامر الذي دعا الى اطمئنانها على الاقل.

هكذا كانت سوزان تفكر في بداية الرحلة.

تمنت انتهاء الرحلة قريباً ولقاء مارك قبل أن تتحول الرحلة الى كابوس لا تستطيع مقاومته. تساءلت عن المسافة الباقية ولم تكن ماهرة في حساب ما قطعاه من مسافة حتى الآن. زاد الامر سوءا تغييرهما الاتجاه في كل ساعة. الاّ ان كارلوس بدا واثقاً من نفسه ومدركاً لكل خطوة اتخذها، ثم انه وفى بوعده بصدد التموينات واعطاء الايصالات بالاشياء والمعدات التي اشتراها للرحلة. وهكذا لم يكن امامها غير الوثوق به في الطريق الذي اختار سلوكه رغم

احساسها بقلق غريب ينتابها كلما نظرت اليه، ومنذ بدء الرحلة، ولم يفارقها. تماماً مثل الاحساس بألم أسنان بسيط ينكد على الانسان يومه.

بقيت تنظر خلفها مراقبة كارلوس في كل خطوة، رغم ادراكها لسخافة ما تفعله ثم قررت ان مصدر احساسها هو ما حدث لها مع دي ميندوزا في الليلة الماضية.

توقفا في موقع قريب من شلال صغير يصب في بركة تبعد عنه قليلاً. استراحا هناك ورويا عطش الخيول. أوقد كارلوس النار لبعد الغداء المكون من علبة خضر وعلبة حلوى الرز. واذ القت نظرة خاطفة على بقية المعلبات، علمت سوزان ان وجبات الطعام المقبلة ستكون شبيهة بالحالية وانها، ستعاني، بعد ذلك، طوال حياتها من سوء الهضم.

كارلوس أخبرها، حين ناقشت الرحلة معه في البداية، انهما سيلجأن الى تناول ما هو متوفر في الطبيعة، الامر الذي أراحها قليلاً. ونظرت حولها للتأكد من خلو المكان من الافاعي السامة. اقشعر جسمها خوفاً.

كانت القهوة قوية بعض الشيء لسوزان، وحين شربتها كلها، انطرحت جانباً مستخدمة سترتها الزرقاء كمخدة، محدقة في زرقة السماء والجبال المرتفعة، ذات القمم الشامخة والقريبة من الغيوم وبدا المكان جميلاً مثل المشاهد الخيالية وحكايات الاطفال برغم بروز الالوان الداكنة في بعض الصخور المظللة بصخور اخرى.

واصل احد النسور دورانه في السماء، انه أحد جوارح الانديز المشهورة. قرأت سوزان ذات مرة، ان لجناحيه قوة يستطيع بها دفع حصان وراكبه من على حافة طريق، لم تستطع تذكر اي حكاية لطيفة عن البراري ومرتفعات المنطقة. كل ما تعرف عنها يتضمن القتل والموت.

شعرت بالراحة عند عودتها الى ظهر حصانها، خاصة بعد تزايد حرارة الجو ورطوبته. بدأت الصخور بالاختفاء ليظهر عدد من الاشجار على جانبي الطريق اضافة الى النباتات الشوكية المكونة حاجزاً طبيعياً. سرّت لانها تفاديا اجتيازها. ازداد عدد الحشرات وزاد الامر سوءا ضيق الطريق الى حد لم يكن فيه مجال

لمرور الخيول، مما اضطرها الى سحبها.

قالت سوزان:

«لا بد ان هناك طريقاً افضل للوصول الى ديابلو!»

شعرت بالخوف من صمت وسكون المكان، وغدا صوت ايقاع حوافر الخيل وانفاسها الثقيلة ثم الاصوات المفاجئة لبعض الطيور والحيوانات المخيفة بسرعة. لم يكن هناك أحد سواها طوال الطريق وكان عزاؤها الوحيد في أن كارلوس غدا متعباً مثلها حيث انحنى بجسده على الحصان، نائماً. وواصل جسده التأرجح الى اليمين واليسار عاكساً حركات الحصان. وتمنت لو انها اصرت على استخدام طريقة اخرى للتنقل حتى لو تطلب الامر قضاء فترة أطول.

حركت كتفيها فشعرت بالعرق. تطلعت بشوق للوصول الى المكان الملائم لقضاء ليلتها فيه. أملت، رغم ما سمعت عن الشروط الصحية لهذه الاماكن، توفر حنفية وماء يكفيان لأخذ حمام مناسب. ولم تدرك قبل هذه الرحلة كم هي رائعة تلك الاشياء اليومية الصغيرة التي يستخدمها الانسان، عادة، حتى يحرم منها ذات يوم.

رغم مواصلتها السير لم يلح في الافق ما يشير الى اقترابها من أي مكان ماهول. وأحست بالقلق ينتابها، اذ شعرت بوجود من يراقبها ثم توصلت الى الاقتناع بوجود حيوانات مختفية بين الاحراش وان لا سبيل لوجود انسان هناك. كانت متعبة جداً بعد قضاء اليوم باكمله وهي تمتطي الحصان، باستثناء توقفها في فترة الغذاء اضافة الى أنها لم تنم الليلة السابقة لبدء رحلتها. ألا يكفي انها موجودة في منطقة وحشية لتتذكر ايضا الذكرى المرة لليلة الماضية؟

وجدت نفسها تتذكر دي ميندوزا. لا بد ان المرأة السابقة، العائدة من اميركا لتقضي معه فترة قصيرة، لم تكن الوحيدة التي قامت بذلك. وراقبت نفسها وهي تتمادى في الغيرة ثم هزت رأسها لتبعد الافكار التي لم تكن في حاجة اليها في تلك الآونة.

لم ترغب بالضحك، بل ارادت نسيان الذكرى ونسيان فاناس دي ميندوزا وابعاد صورته عن حياتها كلها خاصة وهي تمر بالمصاعب الحالية. وحيث لديها ما

يكفي من المتاعب. انها لا تعرف الآن كيف هي صحة جدها، خاصة وانها لم تسمع اي شيء منذ مغادرتها بوغوتا. ثم ان هناك احتمال عودة مارك الى بريطانيا بعد سفرها اضافة الى الاحتمال الأسوأ وهو قيامها بالرحلة كلها وتحمل مصاعبها واكتشافها ان مارك لم يأت الى ديابلو ولم يفكر بالبحث عن الزمرد او تعقب أياً من الاساطير التي سمعت عنها.

لا بد ان الناس الذي اطلقوا على عالم المسرح لقب الغابة، لم يشاهدوا أبداً الغابة الحقيقية، خاطبت سوزان نفسها.

كان الوقت متأخراً وبدأت درجة الحرارة بالانخفاض، خاصة بعد مغيب الشمس. التفتت سوزان حولها باحثة عما يشير الى وجود أي شكل من اشكال الحياة. وإذ حلّ الظلام، قبل وصولهم الى المكان المنتظر، كان عليهم قضاء ليلتهم في العراء. وهذا ما دفع سوزان الى حالة من الانهيار العصبي. سمعت، عن بعد، صوتاً مألوفاً، صوت المياه الجارية. انحنت لتصغي بطريقة افضل وكذلك فعل كارلوس مخاطباً إياها لأول مرة منذ ساعات، إلاّ أنها لم تسمع ما قاله بل اكتفت بالايماء والموافقة على ما قال حتى بدون ان تفهم ذلك.

بدا على وجهه الارتياح. ربما أخبرها عن اقترابهما من ملجأ يقضيان ليلتهما فيه مكان تغتسل فيه وتشرب الماء وأخيراً لتأكل. قد يوجد بعض السكان هناك حيث يستطيعان تناول بعض الطعام المطبوخ. تماشياً مع افكارها، نكزت حصانها بقوة لتدفعه للسير بسرعة ومتابعة حصان كارلوس.

اصبحت الاحراش أقل كثافة، ارتفعت معنوياتها واحس الحصان بذلك، فتحرك بسرعة اكبر. ها هي نهاية اليوم الاول، المتعب، قريبة. كل ذلك جعل خيبتها اعمق حين عثروا على مصدر الصوت: جدول ضحل مجراه يشير الى منبع بعيد. كان ذلك كل ما عثرا عليه. لا شيء آخر لا ملجأ ولا ناس ولا طعام. نظرت سوزان حولها فوجدت كارلوس مترجلاً عن حصانه ويريد مساعدتها لتحصل على بعض الراحة. سألت سوزان بالحاح:

«ما هو هذا المكان؟»

«انه مجرد مكان وسنبقى الليلة هنا، فقد اصبح الظلام شديداً.»

حاول جهده ان يطمئن مخاوفها

«هنا؟»

سألت سوزان ، وكان رعبها شديداً الى حد لم تستطع معه اخفاءه.

«لكنك قلت ان هناك أماكن تقدم فيها بعض الخدمات، ولا أرى اي شيء يشبه ذلك هنا.»

اجاب كارلوس بشكل غير ودي:

«نعم، هناك مثل تلك الاماكن، ولكن يتطلب الوصول اليها أمراً طويلاً. ما نحتاجه الآن هو النار وستقضي الليلة في خيمة جلبتها معي.»

«خيمة؟»

سألت سوزان ولم تتذكر انهما تحدثا عن خيمة من قبل. لا بد انها صغيرة ما دام كارلوس قد وضعها طوال الوقت على صهوة حصانه.

انتابها احساس بالغثيان حين تخيلت نفسها تشارك كارلوس خيمة واحدة، مهما كان حجم هذه الخيمة في هذه البرية الموحشة.

قالت:

«رغم متاعب السفر افضل مواصلة السير على البقاء في بقعة موحشة كهذه.»

«لسوء الحظ يا سنيوريتا، لن نستطيع ذلك. ويتطلب الامر قضاء الليلة كلها سائرين لنصل الى اقرب مكان مأهول.»

ولأن معارضتها لم تنفعها، قررت سوزان ان تتظاهر بالهدوء والا تدع كارلوس يحس بمخاوفها. ثم ان كارلوس لم يحاول حتى الآن ايذاءها، ففكرت أن مخاوفها مجرد أوهام ومن الافضل التصرف بشكل طبيعي معه. ان ما يخيفها هو المكان، الظلمة، المياة الضحلة وصوتها البطيء، ولم تتصور أن كارلوس القصي، يستطيع ايذاءها. وقررت ان الخطأ وقع حين لم تناقش معه تفاصيل الرحلة وضرورة العثور على مارك بأسرع وقت ممكن. فلا مجال هنا، لتلك الأسباب، لكي تلوم كارلوس على اصراره في الحصول على بعض الراحة.

قال كارلوس:

«انه مكان جيد يا سنيوريتا ومن الأفضل أن نبقى هنا. سأحضر النار.»

ثم اضاف مبتسماً:

«في استطاعتك قضاء الليلة لوحدك في الخيمة.»

تصرف كارلوس بدقة كعادته. فخلال فترة قصيرة نصب الخيمة لها ثم هيأ النار ووضع قدراً مملوءة بالماء عليها.

شعرت سوزان بالبرد فاعطاها كارلوس بطانية لفتها حول كتفيها وواصلت شرب قهوتها. كان للنار تأثير ساحر كاد أن يدفعها للنوم الاّ انها حاولت تهدها البقاء مستيقظة. وذكرت ان من واجبها على الاقل مساعدته في اعداد العشاء. ارادت ان تسأل كارلوس عن مكانهم بالضبط واتجاههم وما بقي للوصول الى دياپلو ، الاّ أن تعبها الشديد حال دون ذلك كله.

تمنت وجود شخص تشاركه الحديث عما جرى لها في الايام الاخيرة، رحلتها والمصاعب التي تعرضت لها وحتى مخاوفها وشكوكها. الاّ أنها لم تكن راغبة في مشاركة كارلوس أي نوع من أنواع الحديث والمجاملة، وتصورت وجهه المثير للسخرية وهي تقص عليه مشاعرها، ففضلت الصمت على ذلك.

كانت سوزان غارقة في افكارها الى حد انها لم تشعر بتحركه من مكانه واقترابه منها، فافترضت انه يريد سؤالها عما اذا كانت تريد مزيداً من القهوة، فمدت يدها لتعطيه الكوب، الاّ انه ركل الكوب فتناثرت القطرات الباقية منها على البطانية. حدقت فيه وادركت للمرة الاولى سبب احساسها بالقلق. وجّه اليها نظرات شهوانية.

بعد ذلك قضت بعض الوقت تتقاتل معه وتمنعه من تحقيق نواياه السيئة. وفجأة سمعت صوت ضربات شديدة، فتحت عينيها ورأت كارلوس وقد انطرح على الارض رغم مواصلته التنفس بصعوبة.

لم تصدق ما حدث، ففي الظلمة، بدا حصان وفارسه، برزا من عالم منسي، حفر باللون الاسود. رأت بندقية الفارس منخفضة حين ترجل عن حصانه سائراً باتجاهها.

عرفته سوزان حالاً. كان ذلك فاناس دي ميندوزا.

٤ ـ ستكونين امرأتي !

« كارلوس! هل عدت الى ألاعيبك القديمة؟»

ركله دي ميندوزا ركلة قوية.

بدأ كارلوس يتكلم بالاسبانية، كلمات سريعة ومتلاحقة، ذات ايقاع رتيب، ورغم أن سوزان لم تفهم ما قاله بالضبط إلا انها فهمت مجمل حديثه، وتملكتها الرغبة في صم اذنيها عن قباحة تبريراته. لم تستطع التحرك أو التكلم، بل أحست كما لو انها تحولت الى حجر، كانت ترتجف فقط.

تعثرت الكلمات الاخيرة في فم كارلوس وتوقف ليستعيد انفاسه.

خاطبها ميندوزا قائلاً:

«يقول لي كارلوس انك جئت معه الى هذا المكان بموافقتك الكاملة. هل هذا صحيح؟»

أثارت ملامح وجهه، بدا كانه تمثال صب في زمن سابق لقدوم الغزاة الاوائل الى كولومبيا. لم يكن في وجهه ما يشير الى انسانيته غير رقعة سوداء على احدى عينيه.

«لم الصمت يا سنيوريتا ؟ ألا يقال في بلدك إن الصمت علامة الرضى ؟ أما اذا

كنت قد قاطعتك بتدخلي، فانا ارجو المعذرة.»

رفع يده الى قبعته ذات الحافات العريضة وظهر كانه على وشك ان يبتعد.

«كلا. انتظر. لا تذهب رجاء. صحيح أنني جئت معه بمحض اختياري ولكن ما قاله غير صحيح. ما حدث انني استأجرته كدليل ليأخذني الى ديابلو . وهذا كل شيء.»

ارتجف صوتها خوفاً. ماذا سيحدث اذا لم يصدقها، وماذا شرح له كارلوس ، هل اخبره انها كانت تعلم بمخططه لمحاولة الاعتداء عليها، وانها كادت الموافقة على ذلك ؟

استدار ميندوزا باتجاه كارلوس شاهراً البندقية في وجهه. تعثر كارلوس لمرأى فوهة البندقية وتوسل بصوت مسموع، كان العرق واضحاً على وجهه وكان الخوف بادياً عليه.

«ماذا، ما الذي ستفعله؟»

صرخت سوزان.

لم ينظر اليها بل كان ينظر باتجاه كارلوس

«انك لست المرأة الاولى التي تعاني على يد كارلوس ربما سأسدي جميلاً العالم اذا ما تأكدت انك ستكونين الأخيرة.»

«انك لا تعني ما تقول؟»

صرخت سوزان برعب وشك.

«انني أعني ذلك ولدي السلاح اللازم وكذلك الارادة.»

«لكنك لن تفعل هذا! انها جريمة قتل متعمدة لن تستطيع الهرب من عقوبتها مهما كان البلد الذي تسكن فيه... ثم انه لم يفعل شيئاً... وانت تعلم ذلك.»

«نعم، أعرف ذلك، ولكن ما الذي كان سيحدث لو انني تأخرت نصف ساعة؟ اعتقد ان كارلوس اراد ان يأخذك معه الى الحدود الفنزويلية حيث لديه مجموعة من الاصدقاء وحيث لن يسمع عنك احد بعد ذلك ما لم يكن لك اصدقاء يواصلون البحث عنك بشكل دوريات في بوينس أيرس أو كاراكاس.»

سرت رعشة عميقة في جسدها وتذكرت كيف اعتادت سماع قصص كهذه

باعتبارها حكايات نسوة عجائز ولم تصدق أن مصيراً كهذا سيكون في انتظارها ذات يوم.

قالت سوزان:

«رغم ذلك، فانه لا يستحق القتل.»

نظر اليها للحظات مفكراً ثم قال لكارلوس:

«انك رجل محظوظ حيث منحتك السنيوريتا حياتك. لو كنت في محلها لما كنت كريماً الى هذا الحد. الآن ابتعد عنا ولكن قبل ان تذهب اعطني حزامك.»

حين لاحظ تردد كارلوس اضاف:

«لا اعتقد ان الخجل جزء من شخصيتك أيها الضئيل. انزع حزامك ولا تدعني انتظر فترة أطول.»

ثم واصل دي ميندوزا كلامه قائلاً:

«كما تعلم، هناك مكان مأهول على مبعدة أميال من هنا، واصل السير في اتجاهه ولا بد ان هواء الليل البارد سيساعدك على تهدئة مشاعرك، ولا تدعني ارى وجهك القبيح في اسانتكشن مرة اخرى.»

ابتعد كارلوس عن الطريق بسرعة محاولاً المحافظة على بنطاله في مكانه. للحظات أصغيا الى صوت خطواته المبتعدة، ثم عاد الى الليل سكونه.

استرخت سوزان لفترة من الوقت، وادركت انها على وشك ان تتقيأ. ابتعدت عن دي ميندوزا واختفت في الظلام، اذ يكفي ما انتابها من أحاسيس حتى ذلك الوقت بدون الحاجة الى ان يراقبها وهي تتقيأ. وعندما تخلصت من نوبات التقلص في معدتها، بدأ جسدها بالارتجاف من الرأس حتى القدمين كرد فعل مفاجيء، واحست بانه موجود الى جوارها.

«ارجو ان تتركني لوحدي.»

توسلت بصوت مختنق.

«لا تكوني حمقاء، اشربي شيئاً من هذا.»

ناولها قدحاً فضياً.

هل هو هدية اخرى من امرأة ثرية ؟ تساءلت وهو يناولها القدح. شعرت

بالحرارة تسري في أعماقها. كان ذلك تأثير ذلك المشروب الغريب. ثم توقفت عن الارتجاف جلست باعتدال واحاطت نفسها بالبطانية وقالت في صوت صاف:

«شكراً جزيلاً.»

«يا للمسكينة ! أي جهد بذلته لتنطقي كلمتين. تعالي واجلسي قرب النار لتحصلي على بعض الدفء.»

راقبته سوزان وهو يضيف بعض الحطب على النار، بعد المزيد من القهوة، ولم يهتم بطلبها الا يضيف السكر الى قهوتها بل ناولها كوب القهوة وهو يقول:

«انك ضحية صدمة قوية.»

فكرت بان ما قاله حقيقة ولعل اكبر صدمة تعرضت لها كان ظهوره المفاجيء.

سألته:

«كيف استطعت العثور علينا؟»

كان يقوم بربط الحصان، ثم فرش بطانية له في الجهة الاخرى من النار، وقال:

«لم يكن الامر صعباً.»

أجاب وهو يستلقي على البطانية، يجذب حافة قبعته ليغطي عينيه ثم أجاب:

«تبعتكما طوال الطريق.»

«تبعتنا؟ ولكن لماذا؟»

«ليس من المفروض ان تسألي هذا السؤال. كارلوس معروف بسلوكه السيء، وقد رآكما عدد من السكان في اسانتكشن.»

«بدا لي مجرد رجل ضئيل وساذج.»

«الحية أيضا تبدو أليفة حين تكمن في الاحراش. تقدمي اليها وستدركين خطأك. لو انك سألت اي شخص لأخبرك بحقيقة كارلوس . مع ذلك اندفعت الى الغابة مع رجل لم تعرفي عنه أي شيء. هل انت حمقاء دائماً مع الرجال؟»

«كان خطأ طبيعياً.»

اجابت ببرود، ثم اضافت:

«كنت في حاجة الى دليل وقد تقدم هو عارضاً خدماته. اعتقد أن صديقك صاحب الفندق راميرز، كان قد أخبره بحاجتي تلك.»

«ان لراميريز اخطاءه، إلا أنه ليس أحمق الى حد تسليم عمل بريء الى نمر هائج.
بالعكس فقد فكر خوان راميريز بانك سالمة تحت رعايتي.»

فكرت سوزان قد تكون مجبرة على الامتنان له بعد انقاذه لحياتها، الا انها لم تكن مستعدة لتقبل شعوره، كرجل، بالتفوق عليها كانثى.

ثم اجابته بتهكم:

«الى أي حد يمكن أن يكون الانسان مخطئاً؟»

اشعل دي ميندوزا سيكارة ثم نظر اليها بالتهكم نفسه مذكراً إياها، بصمت وبلا جهد كبير باللحظات التي كان لطيفاً فيها معها.

تململت سوزان في بطانيتها ثم حاولت الابتعاد قليلاً عن النار الملتهبة، ربما لكي تخفي مشاعرها.

نجحت أخيراً في سؤاله:

«ما الذي ستفعله الآن؟»

اجابها بلا مبالاة:

«ستنال قسطاً من الراحة هذه الليلة، وفي الصباح ستبدأ رحلة العودة الى بوغوتا.»

«انا لست عائدة الى بوغوتا، بل سأذهب الى ديابلو كما أخبرتك من قبل. اريد العثور على أخي.»

أجاب ميندوزا:

«يا له من اخ محظوظ. الاّ أن هذا لن يغير شيئاً. ديابلو ليست مكاناً صالحا لامرأة، وخاصة إذا كانت ساذجة وتتصرف مثل طفل عنيد.»

«اعترف بسلوكي الخاطىء مع كارلوس . ولا اعتقد انني ساخدع للمرة الثانية.»

«كلا؟ هل تستطيعين اخباري عن مكانك الآن؟ أشك في ذلك حتى لو اعطيتك الخارطة الموجودة في جيب سترتي. وعدك كارلوس بأخذك الى ديابلو الاّ انه ما كان ليخاطر بحياته ليذهب الى الجحيم. لقد قادك في الاتجاه المعاكس منذ ساعتين على الاقل وانت لم تلاحظي حتى ذلك.»

«ولكنك تعرف ديابلو وفي استطاعتك اخذي الى تلك المنطقة.»

«وما الذي يدفعك الى الاعتقاد باني ساخاطر بحياتي للذهاب الى ديابلو؟»

فاجابت:

«لكنك دليل ماهر وعليك أن تقوم بعملك لتحصل على وسيلة مالية لمعيشتك.»

قال ميندوزا:

«هل تستطيعين دفع السعر المطلوب لخدماتي؟»

«لا ادري.»

قطبت جبينها مهمومة. انه امر فكرت فيه كثيراً خاصة وان كارلوس اخذ منها كل ما تملك تقريباً. في استطاعتها أن تدفع ما سيطلبه في بوغوتا ، ولكن ماذا إذا أصر دي ميندوزا على أخذ اجره مقدماً كما فعل كارلوس؟

قالت سوزان:

«ليس في امكاني دفع اجرتك بأكملها الآن لكنني سأدفع البقية عند العودة الى بوغوتا.»

اندفعت لاتمام حديثها بسرعة حين رأته يهز رأسه علامة للرفض:

«اوه ارجوك، اصغ الى ما سأقوله... انني في حاجة ماسة للذهاب الى ديابلو في اسرع وقت ممكن وسأدفع لك كل ما تطلبه لدى العودة لانني لا املك المبلغ اللازم الآن، وعليك ان تثق بما اقوله.»

ثم أسرعت تقول:

«ماذا ؟ هل تضحك علي؟»

«نعم الى حد ما. أخبرتك انك ساذجة أليس كذلك يا سينوريتا ؟ والاّ صدقت انني تبعتك النهار كله لانقاذك من مصير أسوأ من الموت؟»

«لا افهم ما تقوله.»

«حقاً؛ كارلوس فهم أحسن منك، حيث اعتذر مني قبل ان يتركنا لانه حاول مس امرأتي.»

فاجابت سوزان بصوت متكسر:

«لكنني لست امرأتك.»

«ليس الآن ولكنك ستكونين، لان هذا هو السعر الذي اطلبه لأخذك الى ديابلو»

ساد الصمت بينهما لفترة وظلت كلماته تتردد في رأسها كدوامة لا نهاية لها دوامة بلا معنى.

قالت اخيراً:

«لكنك... لكنك لست جاداً فيما تقول؟»

«لم اكن جاداً، مثل الآن، طوال حياتي. لم تشكّين فيما أقول؟ صحيح أنني وصفتك كطفلة إلا انك في سن تسمح لك بفهم ما اريده منك، وكما ادركت ذلك حين كنا في اسانكشن.»

«كلا، لم ادرك ذلك.»

اجابته بحدة بينما اطلق ضحكة عالية.

«ظننت انك ممثلة. أرجو ان تؤدي ادوارك على المسرح بطريقة أكثر اقناعاً. تخيلي. اذا اردت، انني اعرض عليك دوراً، وهو ان تكوني زوجتي.»

اجابت بسرعة:

«انه، بالتأكيد، اقصر دور في تاريخ المسرح. كلا شكراً، لكن الدور لا يثير اهتمامي.»

«كما ترغبين. سنعود اذن الى بوغوتا في الصباح.»

«في امكانك التوجه الى هناك حينما تريد لكنني سأذهب الى ديابلو، لوحدي اذا اقتضت الضرورة.»

«اوه، كلا. لن تكوني لوحدك فترة طويلة، اذ قد تعثرين على كارلوس في طريقك وانا متأكد بانه على استعداد للاتفاق معك من جديد.»

«ايها النذل.»

ارتجف صوتها بغضب ومرارة في آن واحد.

«رائع يا سوزان. لقد نطقت بمشاعر حقيقية، ولكن اذا ظننت انك بهذا تستطيعين اقناعي برافقتك الى ديابلو بلا دفع، فانت مخطئة. لقد أوضحت لك شروطي والاختيار متروك لك الآن.»

«انك مجنون، مجنون لانك لست في حاجة الى امرأة، فانت جواب، انت متجول

طوال عمرك.»

«شكراً يا سنيوريتا.»

احنى دي ميندوزا رأسه امامها.

«في استطاعتك نيل أي امرأة تريدها، فلم ترغب أن تغير خططك معي؟ كل ما ستحصل عليه، اذا اجبرتني، هو أن اكرهك الى الابد.»

قال دي ميندوزا:

«انني لا أجبرك. اين هي القوة التي استخدمتها حتى الآن معك، انني حتى لم المسك. انك تتخيلين أشياء غريبة بضمنها الكراهية. ولكن حين يأتي الوقت الملائم، سأعلمك ألا تكرهيني. اعدك بذلك.»

«ربما كانت كلمة الكراهية كبيرة. ان ما احس به تجاهك هو اللامبالاة ولا اظن انك ستقضي حياتك مع امرأة لا تستجيب لك باي شكل من الاشكال؟»

«هل تتحديتني؟ اذا كان الامر كذلك فانا اقبله. وسنضع الجليد الانكليزي في مواجهة النار الاسبانية، فهل ستخمد النار ام سيذوب الجليد؟»

«لقد اعطيتك الجواب.»

ثم سحبت نفساً عميقاً قبل ان تواصل حديثها:

«حسناً يا سنيور، انني اقبل شروطك. خذني اذن الى ديابلو لأجد اخي.»

«حسنا اذن. لا تأملي بانتصار الجانب الطيب في شخصيتي او باختفائك قبل ان تسددي الحساب. انه امر لن يحدث ولن أدعه يحدث.»

نظرت سوزان الى الجهة الاخرى تحاشياً لنظراته، اصغت الى دقات قلبها البطيئة كانها على وشك الاختناق. هل قدر لها الالتقاء برجال يرغبون بجسدها فقط؟ ألن تلتقي بانسان يحبها لذاتها ويفكر بها كانسانة اكثر من مجرد جسد؟

رغم الالم الذي سببه الناقد «لي» لها وما كتبه عنها وعن برودتها فانها أملت ان تلتقي ذات يوم برجل يهتم باكتشاف حقيقتها الخافية خلف المظهر. ولكي تتخلص من افكارها هذه، تحركت من مكانها قليلاً. فكرت سوزان، أي علاقة بين شروط دي ميندوزا والحب المنشود؟

لا بد ان حلمه الوحيد هو ارضاء رغباته ولا وجود لما يدل على اهتمامه بالحب.

وإذا كان يظن، للحظة واحدة، بأنها سترضخ لمطالبيه بعد وصولها الى ديابلو ولقاء أخيها، فانه لن يكون مغروراً فحسب، بل أحمق وسوف يستحق الصفعة التي تحلم بمنحه اياها.

قال ميندوزا:

«حان وقت الذهاب للنوم حيث سننهض مبكراً في الغد.»

نظرت اليه مندهشة، اذ اختفت، من صوته، حالة السخرية وعاد يتحدث ببرودة وفي شكل عملي. أملت ان يتصرف هكذا لحين وصولهم الى ضالتهم المنشودة. قررت أن لا تقلق بعد الآن وحتى ذلك الحين.

فجأة قال دي ميندوزا:

«تبدين مندهشة.»

نهض من مكانه بتثاقل ودار حول النار ليقف في مواجهتها، وقال:

«هل توقعت انني ساطالب بجزء من اجرتي الآن؟»

«كلا، بالطبع كلا.»

اجابت سوزان وهي تدير وجهها نحو الجانب الآخر.

ضحك وأمسك بذراعها قائلاً:

«انك تثقين بالآخرين بسرعة. ألم تعلمك تجربتك الاخيرة غير ذلك ؟ ولكن لا تقلقي الآن، فحين يحين الوقت الملائم سأرغب ان تهتمي بي بشكل كامل، بلا خوف.»

قالت سوزان:

«لنحسم امراً واحداً وهو انني لست مستعدة للاهتمام بك. والآن اذا سمحت وتركتني قليلاً فانني ارغب في جلب شيء من جيب سرجي.»

«ماذا تحتاجين؟ مسدس؟ ربما لتدافعي به عن نفسك او لتقتليني به.»

«قد اكون مخطئة يا سنيور، الا أنني لا أحب الميلودراما. انا في حاجة الى شيء اكثر ضرورة الآن، بحاجة إلى قميص استبدل به قميصي الممزق.»

قد يشعر بعض الرجال ان ما فعلته اغراء، الا أنها ادركت ان الامر مختلف مع دي ميندوزا حيث سيفهم ان ما قامت به هو دليل على عدم مبالاتها به وثقتها

ان يجرح سلوكها كبرياءه.

قالت سوزان:

«أخبرني حين تكتفي بما تراه سنيور. او ربما تفضل ألا تدعني أغير القميص، ربما يكون من الافضل لك ان تأخذني الى ديابلو وملابسي نصف ممزقة؟»

رفعت سوزان عينيها الى وجهه بتساؤل بريء، ورأت للحظة واحدة ما جعلها ترتاح تماماً. رأت في عينيه غضباً استطاع اخفاءه بسرعة، رغم ان اصابعه ضغطت بقوة اكبر على ذراعها.

«انها دعوة مغرية. اعترف بذلك. ولكنك اخطأت في فهم شخصيتي.»

ثم أمعن النظر في وجهها المحمر وتساءل:

«الا توافقينني الرأي؟»

«لا اعرف ذلك.»

اجابت سوزان وهي تبتعد عنه سائرة تجاه الخيمة حيث وضع كارلوس أمتعتها الشخصية. غضبت لمرأى يديها ترتجفان حين كانت تبحث عن قميص ترتديه. اسدلت ستارة الخيمة واستبدلت قميصها في الظلمة بعد ان كورت القميص الممزق في شكل كروي وتذكرت انها المرة الاولى التي ترتدي فيها ملابسها استعداداً للنوم. ستنهض في الصباح وترمي ملابسها الممزقة في النهر او تحرقها. إلا أنها لم تفكر بمغادرة الخيمة في ذلك الوقت المتأخر رغم أنها وثقت بوعد دي ميندوزا بأنه سيتركها لتناول قسطها من الراحة بعد ما جرى لها في ذلك اليوم من مصاعب ومشاكل.

آه، قالت، سأجعله يدفع ثمن كلماته وافعاله. أنا أعرف على الاقل ما يجرح كبرياءه وسأستغل نقطة الضعف تلك الى أقصى حد. ابتسمت في الظلام محيطة نفسها بفراشها من البطانيات.

ستتصرف معه بشكل طبيعي أولاً ثم ستفرض ما تريده فيما بعد حين تكون تحت حماية مارك.

صمت أذنيها عن صوت في داخلها حذرها من محاولاتها تحدي دي ميندوزا. تقلبت في الظلمة وحاولت ايقاف نفسها من التفكير بتلك الطريقة بانغلاق

عينيها بقوة محاولة النوم كآخر منقذ لها.

أيقظتها رائحة الطبخ، اللذيذة، وقد اختلطت برائحة الحطب المحترق، فجلست وهي تحاول السيطرة على نفسها لئلا تتصرف مثل يتيم جائع واقف أمام مخبز. لم تستطع تخمين نوعية الطعام، لكنها لم تكن رائحة طبخ الخضار المغلية وحلوى الرز. وضعت البطانيات جانبا ورفعت ستارة الخيمة بحذر.

كان الوقت مبكراً حيث غطى الضباب أعالي الاشجار والهواء كان بارداً مما جعلها ترتجف قليلاً. على مبعدة منها، كان ميندوزا منشغلاً بشوي السمك وشعرت سوزان ان العملية استغرقت انتباهه تماماً، الا انه خاطبها بدون أن يرفع رأسه قائلاً:

«الافطار جاهز يا سنيوريتا.»

نهضت واقفة وهي تمسد ملابسها. ورغم احساسها بالراحة حيث نامت افضل مما توقعت، واستيقظت مسترخية الاعصاب. واذ وقفت تحت الشمس شعرت بان اطمئنانها كان سابقاً لأوانه. ها هي تواجهه وشعره مبلل. لا بد أنه نهض قبلها بفترة طويلة ليستحم ويعد نفسه للرحلة.

«افترض انك اصطدت السمك بيديك العاريتين».

«أسف لأني سأخيب أملك. كلا بل استعملت السنارة مثل بقية البشر.»

وسحب سمكة من النار ووضعها في صحن معدني.

«القهوة جاهزة ايضاً. حاولي ألا تحرقي يديك.»

«انت تحتاط لكل شيء، أليس كذلك.»

وشعرت بانها عدوانية في كلامها، الا انها لم تستطع التحكم بذلك حيث فقدت احساسها بالطمأنينة منذ ان وقعت عيناها عليه.

تناولت الصحن من يده وصبت لنفسها بعض القهوة. كان الطعام رائعاً ومعداً بخبرة ولم يكن لديها أي سبب لانتقاده.

«هل تمانع اذا طلبت منك ارتداء ملابسك.»

ضحك بقوة فنظرت اليه وهي تشعر بانها تصرفت بطريقة حمقاء.

«نعم. يا سنيوريتا.»

وضع صحنه على الارض ثم انحنى تحية لها قبل ان يبدأ بارتداء قميصه.

«لحسن الحظ انك لم تغادري خيمتك في وقت مبكر، فانا لا أنام في كامل ملابسي مثلك ولا استحم مرتديا ملابسي أيضا. في اي حال أرجو انني لم افسد شهيتك.»

نظرت اليه بشك وهي تشعر بالسخرية في لهجته. الا ان وجهه بقي كما كان، جامداً وبلا تعابير فقررت الاكتفاء بما قالته حتى ذلك الوقت وفضلت مواصلة الأكل لانها لم تأكل شيئاً منذ ظهيرة اليوم السابق. كم تغيرت حالتها اليوم مقارنة مع ما كانت عليه البارحة. واصلت مضغ الطعام بآلية رتيبة.

«لا اعتقد انني شكرتك بما فيه الكفاية لوصولك في الوقت الملائم يوم أمس. أود اخبارك أنني ممتنة لك.»

انهى مضغ آخر لقمة ورمى العظام في النار. التوى فمه قليلاً وهو ينظر اليها، ثم قال:

«الامتنان يا سنيوريتا ؟ ليس هذا ما اريده منك.»

«ولكن هذا كل ما اشعر به نحوك.»

اجابت بسرعة وأسرع مما توقعت.

وضعت صحنها على الارض وانحنت محدقة في النار واسدل شعرها.

«اعرف هذا. كانت الليلة السابقة مرهقة. انا اخذنا قسطاً جيداً من الراحة. لا اصدق انك عنيت ما قلته بالأمس.»

«من الافضل لك أن تصدقيه يا سوزان ، فأنا عنيت كل كلمة لفظتها.»

توقف كأنما توقع استجابتها بشكل ما. إلا انها بقيت صامتة، محدقة في النار كأنها تحاول تنويم نفسها مغناطيسيا.

استمر بلا رحمة:

«انا لا اوافقك الرأى بصدد العري في الصباح، حيث تبدين جميلة لحظة استيقاظك بشعرك المنسدل وعينيك الكبيرتين تتألقان.»

«كلا.»

صرخت سوزان باختناق.

«نعم، فكرت أنا أيضاً في الليلة الماضية ولكن باتجاه مختلف.»

وضحك قبل ان يواصل كلامه:

«يا كارلوس المسكين. لا بد انه اعتقد انك كنت هدية عيد ميلاده حين طلبت منه العمل كدليل.»

قالت سوزان:

«لا تذكر كارلوس أمامي مرة اخرى. كذبت حين قلت إنني ممتنة لك. انك في الحقيقة اسوأ منه.»

«ان مقارنتك مبكرة وغير صحيحة.»

«أنت تعرف ما أعني وارجو أن تتوقف عن ترديد ملاحظاتك الساخرة.»

أرادت سوزان أن تكون لكلماتها تأثير اللسعات وان تؤذيه وتوقفه عن الضحك.

«انك جميلة حين تغضبين يا سنيوريتا. حيث أستطيع أن أرى جزءاً من عاطفتك الكامنة خلف قناعك البارد.»

«شكراً. أرجو ألاّ تتوقع مني الزهو لملاحظاتك.»

فأجاب ميندوزا:

«يبدو أن توقعاتي اكبر من الواقع. والآن، بعد أن انهيت افطارك، لعل من الافضل أن تتهيأ لمواصلة الرحلة. لكنني تركت جانبا بعض الماء الساخن لتغتسلي. لا أوصيك باستخدام النهر لان تياراته عميقة وقوية والنهر مكتظ بمخلوقات اخرى.»

تناولت سوزان الماء الساخن ووقفت بحذر

«انني شاكرة لك رعايتك، ولكن لو فرضت الخيار بينك وبين الاسماك الضارية، لأخترت الاخيرة بلا تردد.»

استدارت مبتعدة بخطوات ثا[illegible]

٥ ـ أرجوك لا تلمسني...

قررت سوزان، رغم كلماتها الشجاعة، أنه من الافضل استخدام الماء الساخن. لم تكن ترغب السباحة في نهر له تيارات قوية لعلمها انها ليست ماهرة في السباحة، ثم انها لم ترغب بالسير أمام عدوها ملتفة بمنشفة صغيرة.

انتعشت قليلاً رغم ضيق المكان في الخيمة ثم مشطت شعرها وشدته قبل أن تضع القبعة. لم تعرف كيف كانت تبدو واكدت لنفسها بانها لا تهتم بل من الافضل لها لو انها بدت مخيفة، وخشيت ان يحاول دي ميندوزا استيفاء أجره قبل الوصول الى ديابلو وقبل ان تعتمد على حماية [illegible]ارك.

في الحقيقة، كلّما فكرت اكثر كلما توصلت الى الاقتناع بان دي ميندوزا سيحاول الحصول على ذلك لانه، رغم عجرفته، ذكي وسيدرك أن اخيها لن يقف مكتوف اليدين متفرجاً بينما هي تسدد أتعاب الرحلة. عليها، اذن، التزام الحذر طوال الوقت. في الوقت نفسه زررت أعلى زر في قميصها

شعرت سوزان بتحسن فيما كانت تلف البطانيات حين خطرت في ذهنها فكرة طارئة بانها تحتقره حين يكون على مبعدة منها، واقنعت نفسها بأنه افضل مثل لكل ما تكره في الرجال من عجرفة ورغبات. لم تكن تتحمل هذا النوع من

الرجال، إلا أنها لم تنكر قدرته على انتزاع اعجابها اكثر من أي رجل آخر قابلته في حياتها.

حاول كارلوس ، بالامس، الاعتداء عليها، الامر الذي قد يتركها مهانة طوال حياتها، إلاّ أنها قررت أن محاولة كارلوس لم تترك أي اثر في عقلها. اما الذكرى المخجلة في ذهنها فكانت ما حدث لها في اسكاتشن من نقاشات في غرفتها مع دي ميندوزا .

سمعت سوزان صوت ميندوزا وهو يقول:

« سوزان، هل ستبقين اليوم كله داخل الخيمة. حان وقت مغادرتنا.»

حلت البطانيات بسرعة وخرجت من الخيمة. بدا ميندوزا أشبه بالقراصنة اكثر من اي وقت آخر، اذ أرخى قبعته على عينيه ليغطيها، ووضع يديه على خاصرتيه. كل ما احتاجه لاكمال تلك الصورة، صورة القرصان، في ذهنها، هو سيف أو مسدس قديم.

«ان احتياطاتك فاشلة.»

خاطبها ناظراً اليها.

«لم احاول أي شيء.»

اجابته بكبرياء وصدق، واضافت:

«إلا انني مقتنعة بانك لا تصدق إلا ما ترغب فيه.»

انحنى امامها واشار الى حصانها المعد للركوب. خطت باتجاه الحصان وبدأت تحدثه بصوت منخفض، ويبدو أن الحصان كان يتوقع الحصول على بعض قطع السكر الا أنها لم تكن تملك شيئاً من ذلك.

تجاوزها ميندوزا حاملاً الخيمة.

«سنستخدم حصان كارلوس لحمل المتاع اليوم، اذ لا فائدة أخرى لوجوده معنا.»

«لا فائدة من كليهما، إلا ان حصانك جميل لا بد أن سعره غال.»

ارادت، بعد ان لفظت تلك الجملة، ان تعض على شفتيها لكي تمنع نفسها من الكلام، خاصة وان ما قالته بدا وكأنه تساؤل عن مصدر عيشه وسبل حصوله

على المال، إلا انه لم يتأثر بسؤالها.

«نعم كلفني شراؤه الكثير. انه يستحق ما هو اكثر من ذلك لاخلاصه وشجاعته. انه من أحصنة لاينوس، حيث يمكن مشاهدة الاحصنة ذات السلالة العريقة.»

«لاينوس؟»

تساءلت سوزان:

«في مراعينا، تمتد الخضرة أميالاً. تختفي العشب لأشهر ويظهر المكان مثل الصحراء، ثم يبدأ النمو من جديد. يقال بانه مكان يستطيع الانسان النسيان والعثور على حقيقته.»

«يبدو انك تعرف الكثير عن المنطقة.»

«ذلك طبيعي لانني ولدت فيها.»

سألت سوزان:

«هل كنت راعياً للبقر؟»

«نعم كنت راعياً لفترة قصيرة حين تعلمت ركوب الحصان.»

فسألت سوزان:

«أتفضل الآن عملك كراع للبشر عبر الجبال؟»

كان سؤالاً غريباً. ابتسمت لتلك الفكرة. يا له من سؤال سخيف.

ثم أضافت:

«لا بد أنك تفضل ذلك حيث الحياة أسهل والاجور مجزية.»

نظر اليها بجفاف وقال:

«نعم يا سنيوريتا، ما تقولينه صحيح.»

ثم امتطى حصانه.

شعرت بخيبة امل، اذ رغبت باثارة غيظه وظنت أنه سيناقشها مدافعاً عن عمله واسباب اختياره له. ولكن ربما لم يكن في امكانه الدفاع عن اختياره، ففضل الصمت.

«هل تفضل العودة الى هناك؟»

قالت تلك الكلمات متسائلة وهي تمتطي حصانها.

«ربما»

فنظرت اليه وهي تقارن مستواها بمستواه.

سألت سوزان مرة اخرى:

«ألأجل ان تنسى ماضيك؟»

«ربما، او ربما لأجد مستقبلي. من يدري؟»

لم يكن ذلك هو الجواب الذي توقعته سوزان . شعرت بالغضب وهي تتبعه طول شقة النهر، وحين وصلا مكاناً استطاعت الاقتراب منه، لاحظت سماء العداء على وجهه. ظنت أن اسئلتها دفعته الى استعادة بعض ذكرياته المؤلمة وشعرت بالأسف لذلك، خاصة وانه لم يعد يتكلم معها.

ارادت أن تسأله اكثر إلاّ أنه بدأ منغلقاً على نفسه بشكل غريب ولم ترغب في مقاطعة افكاره.

احاطها هواء الغابة الرطب من جديد. وتابعا التسلق ببطء وثبات وكان مسارهما عبارة عن سلسلة من المسارات الملتوية مما أشعرها بالدوار. تخلل ذلك مرورهما بأحراش ذات عطور نفاذة وفكرت أن في امكانها جني ثروة طائلة اذا ما استطاعت تعبئة هذه العطور في زجاجات وباعتها في شارع بوند المشهور في لندن.

مضت ساعة على بدء رحلتها حين أصبح الجو حياً. آلاف الاجنحة الصغيرة المرفرفة وزقزقة وغناء آلاف الطيور الصغيرة.

سألت سوزان فجأة:

«ما هذا؟»

«انها الطيور الطنانة. هناك الالاف منها في هذا المستوى من الارتفاع، حيث الظروف ملائمة لمعيشتها.»

أحست بالارتياح لخرقها الصمت على الاقل، رغم جوابه المقتضب واستغربت لتناقض مشاعرها، اذ ربما الافضل لها بقاؤه صامتا وعليها ألا تسترعي انتباهه ولكنها عللت نفسها بأنّ ما فعلته ناتج عن فضولها في معرفة تغيره المفاجىء.

حوله صمته الى لغز رغبت بحله.

شعرت أن طنين الطيور حولها انما هو صدى لحيرتها واختلاط أفكارها. ورغم ابتعاد ميندوزا مسافة غير قصيرة عنها، لم تحاول اللحاق به معتمدة ملاحظة الجمال الغريب المحيط بها لوقت أطول. الاشجار طويلة، وجذب نظرها حرش معين اكتظ بالزهور المتألقة مثل الشعلة في مكان خافت الاضواء.

«لا استطيع القول بانك دليل جيّد يا سنيور»

قالت سوزان ، ثم اضافت حين لحقت به:

«الا تزوّد زبائنك، عادة، ببعض المعلومات عن الظروف الطبيعية المحيطة بهم؟»

فاجاب ميندوزا:

«ما طلبته مني هو ايصالك الى ديابلو يا سنيوريتا. أما اذا كنت راغبة في نزهة استكشاف نباتية، فكان من الافضل تقديم طلبك الى شخص آخر»

«آسفة جداً يا سنيور لانني لم افعل ذلك.»

«وها أنا اشعر بالاسف لانني لم اتركك لرحمة كارلوس . رغم ان اهتمامه بعلم الحياة لا يتعدى معرفته للأسماء منها فقط.»

عضت شفتها، واثارت جنونها خسارتها الدائمة معه مهما حاولت اثارة غيظه وحذرت نفسها بان الأمر أسوأ. اذ انه مهين لكرامتها أيضاً. صحيح انها أجادت دور الفتاة الجليدية في لندن، واستطاعت التصرف بطريقة أوحت ببرودتها، كما وصفها «لي»، وسلوكها المحير وساعدها في ذلك جمالها وقامتها الطويلة، مما نجح في دفع أي رجل للتفكير اكثر من مرة قبل التقرب منها. رغم كل ذلك، لا يبدو أن دي ميندوزا قد تأثر في أي شكل من الاشكال.

خاطبته قائلة باعتدال:

«ربما من الافضل عقد الصلح بيننا يا سنيور دي مندوزا.»

«ولم يتوجب علينا ذلك يا سنيوريتا كريشتون؟»

«لانني فكرت بما ان القدر يجبرنا على البقاء معا لبعض الوقت فربما من الافضل التصرف كأصدقاء.»

اجابت رغم عدم توقعها لرفضه.

«هل تحاولين اخباري بانك رضخت أخيراً لقدرك؟»

«انني اتحدث عن الرحلة الى ديابلو ، وليس عما سيحدث أو لا يحدث حتى تصل هناك.»

«كلامك يعبر عن الشك في نواياي. اذا كان الامر كذلك، لا تخدعي نفسك. انني مدرك تماماً لطبيعة افكارك الانثوية التي تحتل ذهنك في الساعات الاخيرة.»

«لا اعرف ما تعنيه؟»

«كلا ؟ إليك شيء لتفكري به. ما الذي سيحدث اذا وصلنا الى ديابلو ولم تجد أخاك هناك؟»

شحب وجهها. ذلك احتمال تحاشت التفكير به في الآونة الاخيرة لانشغالها بالحالات التي مرت بها. وواصل حديثه ببرود:

«احذرك يا سوزان ، لقد وافقت على اخذك الى ديابلو لتجدي مارك ، ولكن اذا حدث وانه لم يكن هناك ، فانني لا اعتبر شروط اتفاقنا منتهية.»

«لكنه لا بد وان يكون هناك.»

اجابت سوزان، فانحنى دي ميندوزا متسائلاً:

«لم؟ كي تلجأي اليه وتتخلصي مني؟ هل تظنين بانني سأسمح بذلك؟»

«لا يهمني الحصول على موافقتك. اخبرتك في اسانكشن سبب قيامي بالرحلة. اريد العثور على مارك لأن جدي مريض ويريد رؤيته. ربما كان يحتضر الآن بينما اضيع وقتي في محاولة اقناعك. ذلك هو سبب مجيئي الوحيد ولن اعود ما لم احققه حتى لو اقتضاني الامر الذهاب الى نهاية العالم.»

ساد الصمت بينهما ثم قال بغيظ:

«كيف وافق جدك على ارسال فتاة مثلك الى رحلة خطيرة؟»

«في الحقيقة، اعتقد انك وجدي تتشابهان في كثير من الصفات. إنه أيضاً يعتبر المرأة اداة للطبخ والتزيين والمتعة.»

«لا تهمني قابليتك في الالقاء المسرحي يا سوزان . أنا ابحث عن شيء اكثر اثارة من ذلك.»

«سأخيب أملك اذن.»

«لا اعتقد ذلك. اذن، اذا كان لجدك نظرياته تلك عن المرأة فما الذي تفعلينه هنا؟

انا متأكد انك لم ترغبي المجيء برضاك.»

«لم لا؟ صحيح أن الاحداث اخذت مساراً غير متوقع، إلا أنك لا تستطيع أن تلومني او تلوم جدي على ذلك. ثم انني اردت المجيء لانه طلب مني ذلك. لا أدري اذا كنت رب عائلة يا سنيور، ولكن اذا كان الجواب ايجاباً فلا يخفى عليك ما للعائلة من احترام وحقوق لا تستطيع ايفاءها بمجرد التهرب. ثم...»

وترددت فقال ببرود:

«ارجوك، انهي كلامك»

شعرت بان كلماتها ربما أذته. خصوصاً ملاحظاتها عن العائلة وحقوقها وقالت:

«انها المرة الاولى التي يطلب فيها جدي أي شيء مني. المرة الاولى التي يعترف فيها بانني انسان بدلاً من دمية جميلة.»

«هل يهمك هذا؟»

استدار ميندوزا وحدق في وجهها، ثم اضاف:

«لذلك كنت مستعدة لنبذ كافة الاعتراضات ؟ الم يخطر على بالك بانك تعرضين حياتك للخطر؟»

«كلا.»

اجابت سوزان بدهشة ثم أنهت كلامها:

«اهتمامي الوحيد الى جانب ارضاء جدي هو مهنتي.»

«نعم، هل تهمك مهنتك كثيراً؟»

«انها تعني كل شيء في حياتي.»

أجابت باختصار.

«كل شيء؟ اخبريني، الم تلتقي برجل دفعك للاحساس بان هناك حياة اخرى اكثر اقناعاً من تمثيل حياة الاخرين على المسرح؟»

مرت في ذهنها ملامح «لي» ثم اختفت بسرعة. كم شفي جرح قلبها بسرعة بعدما ظنت انه غير قابل للشفاء. ربما كان جرح كبريائها أعمق من قلبها.

«كلا لم يكن هناك احد.»

قالت ذلك وهي تتعجب من اعترافها بذلك. ربما كان من الافضل اخباره عن

مجموعة من العشاق الوهميين. إلا انها اضافت قائلة:
«تكلمنا ما فيه الكفاية عني. ماذا عنك يا سنيور؟ هل لديك زوجة شابة هادئة مخفية في مكان ما؟»
«لم تسألين عن ذلك يا سنيوريتا؟ هل خشيت معرفتها بك واثارتها الفضيحة لغيرتها منك؟»
«كلا. اطلاقا.»
احست بدقات قلبها تتزايد. وقالت:
«رغم انني واثقة بان أي امرأة حمقاء توافق على مشاركتك حياتك. لا بد ان تكون معتادة على مثل هذه المشاهد.»
«في هذه الحالة. لحسن الحظ لا تزال السيدة دي ميندوزا صورة رسمتها في خيالك. يبدو وكانك ارتحت للفكرة؟ هل تضايقك فكرة زواجي؟»
«كلا، ولم تضايقني؟»
تساءلت سوزان بلا مبالاة.
«لم حقا؟»
وافقها ميندوزا وهو يدير وجهها باتجاهه. فاستدارت الى الجهة المعاكسة بدلاً من ذلك.
«لا تلمسني أرجوك.»
«هل يضايقك ذلك ايضاً؟»
«كلا. كل ما في الامر أنني اكره التحديق في وجهي.»
«كل هذه الضجة حول لمسي اياك عرضياً. هل تفضلين الامر اذا انزلتك عن حصانك؟»
«كلا.»
صرخت سوزان صرخة عنيفة تخللها احساس بالعار.
«لا تثيرني اذن بتظاهرك انك لا تحبينني. كلانا يعلم انك تكذبين. وان تظاهرك يجعل الامر اكثر صعوبة لك.»
احست كأن النار تلتهب في داخلها وامتلأت عيناها بدموع الغضب. كل هذا

جاء نتيجة لفقدانها السيطرة على نفسها. لو انها حافظت على وعيها وصفعته بدلاً من ذلك لما كانت في حالتها الحالية المؤسفة. إلاّ ان الشيطان غرس في نفسها التخاذل والاستسلام فتحوّلت الى لعبة بين يدي هذا الدليل الغامض. اذ ليس من المعقول أن تكون للحظة ضعف واحدة مثل هذه القوة وأن تقودها الى حافة الكارثة تقريباً. الاكثر من ذلك لم تستطع التفكير بأي من صديقاتها.
لم تراودها هذه الافكار؟
لم يكن دي ميندوزا مهتماً بأحاسيسها. بل كل ما اراده هو خضوعها له ولفترة قصيرة. وشحبت متحققة لاول مرة من مسار افكارها ولفكرة واحدة بالاخص وهي انه اذا استطاع دي ميندوزا التحكم بها فانه سيستمر في ذلك مرة واحدة والى الابد. اذ انها لن تمر معه بمرحلة وسطية. بل سيلي ذلك الفراق وسوف يقتلها الالم. خاصة وانها ستقع في شباك حبه ولن يكون الامر مجرد ممارسة للعواطف. بل ما هو مؤكد هو ان لا مستقبل لها مع ميندوزا.
نتيجة لأفكارها المشوشة ارتخت قبضتها الممسكة بلجام الحصان وكادت ان تقع لو لا أن ميندوزا امسك بها حتى استعادت توازنها.
قال ميندوزا:
«اسرع طريقة لكسر عنقك هي أن تحلمي وانت تمتطين حصانك. ربما كنت تريدين ذلك؟»
كانت لا تزال في حالة الدوخة بسبب ادراكها لما حدث. لعله لاحظ ارتباكها.
«كلا. لانني لا اعتقد أنك أو أي رجل آخر اسوأ من الموت.»
فاجاب ميندوزا:
«تذكري اذن أن تحتاطي اذ أن رقبتك المكسورة قد تعيق كل شيء.»
نكرت ان ما سمعته يشكل تحذيراً مخيفاً فدفعت حصانها الى الامام محاولة صعود المنحدر.
توقفت لفترة الغداء في ساحة ظللتها احراش عالية. ألقى دي ميندوزا نظرة سريعة الى جيب السرج ثم جذب بعض الحساء المجفف. وكانت رائحة الحساء المطبوخ مثيرة للشهية إلا أنها لم تستطع تناول الاناء المقدم لها.

«لست جائعة»

قالت بصوت شبه معتذر، مغطية عينيها تحاشياً لاشعة الشمس. رفعت رأسها ناظرة اليه.

«أظن ان الحادث الاخير أثر على شهيتي.»

كان عذراً واهياً إلاّ انها لم تجد عذراً افضل منه.

«هل تشعرين بالمرض؟»

قطب جبينه وبدا لها اطول قامة من العادة.

«كلا. او ربما قليلاً. اعتقد انه الارتفاع عن مستوى سطح البحر.»

«لا اعتقد باننا على ارتفاع هائل ولكن لا تقلقي فاننا لن نتسلق اكثر من هذا اليوم.»

«انني مسرورة لذلك. قضينا نهار أمس منحدرين وقضينا اليوم كله متسلقين.»

«انها الطرق الجبلية، لذلك تحتاج أحيانا يومين لقطع مسافة تبدو قصيرة جداً على الخارطة.»

«وهل يتطلب الوصول الى ديابلو عدة ايام؟»

ولم تحاول النظر اليه مباشرة.

«الم يقل أحد رجال بلدك أن من الافضل السفر على أمل الوصول بدلاً من الوصول نفسه. لذلك لن افسد عليك الامر باخبارك. والآن تناولي الحساء فأمامنا طريق طويل نقطعه قبل فترة العشاء. ثم وضع إناء الحساء الى جانبها

تنهدت اذ لم تشعر طوال حياتها بمثل هذه الحيرة والخوف.

فكرت بانها سوزان كريشتون الباردة، ذات الرأس الشامخ دائماً والعارفة لما تريده من حياتها وعملها وكيف تحصل عليه، كما كانت تعرف ماذا تريد من الرجال، وتعودت أن علاقتها بأي رجل يسودها الاحترام والصداقة اكثر من اي شيء آخر، كما ستسود المساواة بينها وبين الرجل المختار، لأنها انسانة تختار ما تريده بدلاً من أن تعامل كدمية ترتدي ملابس غالية وجميلة.

ذلك ما كانت تريده لنفسها : احترام النفس اولاً وأخيراً ولذلك لم تنخرط في أي علاقة رخيصة، مهينة للذات. او على الاقل هذا ما آمنت به. والآن ها هي تواجه

نفسها، لعلها اقتنعت بأرائها من قبل لأنها لم تمر بتجربة حقيقية. وحتى في الذي ارادها له لم يستطع أن يثير فيها أية عاطفة في لقائها الاول.

أثار اعترافها بالحقيقة خجلها، إلا أنها كانت الحقيقة. فمنذ اللحظة الاولى آثارها حضوره كرجل. هي ذات الحياة الاجتماعية والمحاطة بالرجال دائماً، رجال مستعدون لتلبية طلباتها حالما تطلب. وادركت انها لو حاولت بدء علاقة ما، ربما كانت ستتحول الى علاقة دائمة، حيث سمعت عن علاقات كهذه انتهت الى زواج ناجح.

كلا ليس بهذه الطريقة خاطبت نفسها أخيراً.

انهت تناول حسائها ووضعت الاناء جانباً قبل ان تقف لتتمطى بكسل. كانت ساعات الركوب طويلة وربما لم تكن تبالغ بصدد الارتفاع حيث أحست بالتعب الشديد. دهشت لمرأى ارتفاع قمم الاشجار الكثيفة وبدا كأنهما من أوائل الرحالة الى هذه المنطقة، حيث لم يعثرا على ما يشير وجود أي حياة انسانية عداهما، ومنحها الاحساس بالوحدة خوفاً مضاعفاً.

ربما كانت الامور بينهما أحسن لو انهما كانا مجرد رفيقي سفر، إلاّ أن ذلك كان مستحيلاً حيث ساد بينهما التوتر منذ البداية.

حدقت في اسفل الوادي متتبعة مسار النهر الزاحف بعيداً. وإيقنت أنها ستحصل على منظر أفضل فيما لو تسلقت إحدى الصخور. كانت على وشك مناداه ميندوزا المشغول بالاهتمام بالاحصنة، وطلب موافقته، إلا أنها غيّرت رأيها حين رأته مديراً ظهره لها، ثم فكرت بانها لا تحتاج الحصول على موافقته لكل خطوة تخطوها خاصة اذا كانت مجرد تسلق صخرة.

اقتربت من الصخرة ورفعت نفسها فلاحظت وجود مكان كاف لجلوسها في القمة، فاطمأنت وبدأت التسلق. كانت قريبة من القمة وامتدت يدها لتمسك بالحافة البارزة حيث سمعت خلفها صوت ميندوزا محذراً إياها. جمدت في مكانها وادارت رأسها فرأته راكضاً باتجاهها حاملاً في يده مدية يلتمع نصلها بفعل اشعة الشمس. للحظة واحدة ظنت أنه اصيب بالجنون إلا أنها سمعت صوتاً آخر، قريباً منها في القمة وكان صوت فحيح غريب.

صاح ميندوزا:

«لا تتحركي أيتها الحمقاء، فقد تكون هناك حية لأنها تفضل مثل هذه الاماكن عادة.»

«نعم هناك حية، هناك حية.»

كررت ما قالته عدة مرات.

رمى المدية بعيداً ثم قال:

«اقفزي، اقفزي وسامسكك.»

«لا اعتقد أنني استطيع الحركة.»

اجابته ببطء.

نعم تستطيعين ذلك اقفزي ثقي بي.»

ارادت سوزان الضحك للفكرة إلا انها لم تستطع اطلاق اي صوت. ثم وبدون تفكير تركت نفسها لتتحدر الى اسفل الصخرة. وقعت بين ذراعيه إلا أنه تراجع الى الخلف بسرعة ممسكاً بها بقوة ليحول دون سقوطهما سوية. كان أول شيء ادركته بعد ذلك هو انطراحها فوقه على العشب. سالته:

«هل آذيتك؟»

وهي تحاول الابتعاد بحركة يائسة.

«أفقدتني التوازن قليلاً، انك اثقل مما ظننت.»

احمر وجهها وبذلت محاولة اخرى للابتعاد عنه مؤكدة اسفها. سألها:

«ماذا كنت تفعلين في اعلى الصخرة؟»

«اردت ان أرى المشهد من اعلى وبشكل افضل.»

«كنت على وشك رؤية المنظر الاخير، تذكري انك لا تتجولين الآن في منطقة البحيرات في بريطانيا. ربما كان زحفك سيثير الحية وهذا اخطر شيء يمكن حدوثه.»

شعرت لبقائها في هذا الوضع وجاً لوجه، خفضت عينيها عن قرب الميدالية القضية التي كان يعلقها حول عنقه. ظنته في البداية أنها مجرد ميدالية دينية

رخيصة وقد رأت ما يشبهها في عربات السوق، الا أنها لم تكن كذلك بل كانت ميداليه قديمة تحمل شكل حيوان غريب.

«حسناً، يجب ان أشكرك مرة أخرى على انقاذك لي.»

اجاب ميندوزا :

«يا لها من جملة.»

«آه.»

تأوهت سوزان. وعلمت أن صعوبة تنفسها يعود الى وضعها غير المريح. كانت سوزان صامتة، تحدق في وجهه الغريب وتلاحظ الكآبة على وجهه. كان فمه جميلاً. رغبت فعلاً في الابتعاد عنه وهمست اسمه بخفوت.

«أحب أن اسمعك تنطقين اسمي.»

«ان ما يقلقني هو اسلوبك يا سنيور، وسيكون في امكانك اختيار صحتها تماماً حين تصل ديابلو.»

نهض واقفاً، نافضاً الغبار وبقايا العشب عن ملابسه، ثم ابتعد باتجاه الخيل، تاركاً اياها مهجورة لتتعثر وهي تتبعه في تلك الجبال.

٦ - لمسة الفراشة

لم تصدق سوزان عينيها حين رأت دخاناً يتصاعد من بعض الاشجار البعيدة، دلالة أقترابهم من مكان مأهول. ارتفعت معنويا[illegible] رغم ما احاطها طوال اليوم من صمت مطبق. وهكذا فقد تأملت أن يتغير الوضع قريباً.

كان الصمت بينهما ملموساً الى حد أنها تخيلت امكانية أن تمسه باليد، ازداد بلا انقطاع طوال اليوم، حتى أن الشكوك بدأت تراودها في مدى صحة مافعلت وبدأت تتمنى لو أنها لم تنطق الكلمات الاخيرة. إلا أنها ايقنت بأن كلماتها كانت السلاح الوحيد لمنع دي ميندوزا من تجاوز حدوده، ولاجل ما آمنت به طوال حياتها.

ساعدها ذلك، على الاقل، على الانتصار بشكل مؤقت، إلاّ أن دي ميندوزا، كما فكرت لن يترك فكرة الاستحواذ عليها وعلى حريتها، الفكرة المؤذية أكثر من اي شيء آخر اذا نجح في تنفيذها.

كانت خائفة من الطريقة التي عاملها بها، ومشاعرها الناتجة عن ذلك. شعرت انه كان رقيقاً معها رغم كل شيء، كأنه يقودها الى طريق لم يسلكه أحد من قبل. ما الذي توقعته منه اكثر؟ أن يستخدمها لارضاء رغباته وتركها بعد ذلك؟ شعرت بالذعر للفكرة الاخيرة.

تساءلت عما سيحدث فيما لو خضعت لغرائزه الجامحة في تلك المنطقة الجبلية. ربما سيقرران البقاء فترة اطول، واذا واصلا رحلتهما فلا بد أن الصمت الحالي سيكون مسألة مختلفة. ربما ما كانا سيخططان للبقاء في المكان المأهول، بل كانا سيفضلان نصب خيمتهما في مكان ناء.

شعرت بألم في صدرها ودموعها تنهمر بغزارة على خديها. قالت لنفسها: لا أريد ان يحدث ذلك. جئت الى هنا لاؤكد شخصيتي وقوة سيطرتي على نفسي وانني اكثر من مجرد وجه وجسد وكتلة من المشاعر المختلطة. أردت ان أثبت لجدي انني قادرة على اجتياز المصاعب مثل أي رجل، خصوصاً اذا كان يمتلك الارادة لتحقيق ذلك. لا استطيع حتى التظاهر بأنه لم يحذرني رغم انه لم يتصور انني سأقع ضحية ظروف كهذه.

وتأكد لها انها تستخدم وضع «لي» لها كفتاة جليدية، كسلاح للدفاع عن نفسها وتعزية نفسها. أي ملجاء كان هذا الذي استخدمته لفترة طويلة، اذا لم يتعرض الانسان للاغراء، فالى أي حد يعرف نقاط ضعفه؟ انها تعرف الآن. على الاقل شيئاً لو أن «لي» أثار فيها شعلة واحدة من اللهيب الذي احست به مع دي ميندوزا لاصبحت له فترة طويلة، وبدون التظاهر بحصانتها. ها هي تدرك ذلك الان بهذا الوضوح.

اقتربا من طريق بدا وكأنه سلك من قبل. طريق ترابي تتخلله الحصى وآثار عجلات. قفزت عدة دجاجات لا[illegible] التراب [illegible] منها. ثم اختفت مسرعة بين الاشجار القريبة. سمعا نباح كلب لم يبعد عنهما كثيراً. ادركت ان البيت لا يبعد عنهم كثيراً. تنهدت بارتياح يشير الى تعبها وقلقها.

نظرت حولها متفحصة، لم تر مجموعة من الابنية بل بيتاً واحداً، ولم تر مزارع القهوة او الموز. فظنت أن يكون الذين يملكون البيت فقراء الى حد انهم يرفضون استقبالهم او ربما يجدون ضيافتهم عبئاً عليهم.

قطع عليها سلسلة افكارها ظهور رجل من بين الاحراش. للحظة، وقف يحدق في وجه ميندوزا كأنه لا يصدق عينيه ثم ضحك وصرخ معلناً الترحيب. راقبت سوزان ميندوزا وهو يترجل عن صهوة جواده ليرد التحية الترحيب. تلت ذلك محادثة طويلة بين الاثنين بالاسبانية. لذلك لم تستطع فهم

ما قبل، عدا بعض الكلمات الا انها خمنت ان الرجل سأل ميندوزا عن سبب وجوده في المنطقة ولم كان يسحب خلفه حصاناً محملاً بالامتعة. لا بد ان فاتاس دي ميندوزا اعتاد استخدام المكان للراحة في تجواله ثم سار الرجلان في المقدمة بينما تبعته وهي تكاد تنفجر غضباً.

باستثناء نظرات سريعة ألقاها عليها الرجل، لم يهتم بها القادم اطلاقاً. كما أن ميندوزا لم يعرّفها به وتجاهل ذكرها في حديثه. ومهما كان حديثهما، حاولا جهدهما التحدث بصوت منخفض قريبين من بعضهما البعض بشكل جدي. فكرت سوزان بانه حديث رجال. وكتمت [illegible]اسها حين رأت البيت. كان يشبه كوخاً صغيراً، سقفه من الصفيح ويغطيه بشكل كامل. اما الموقد الموجود خارج المنزل فقد انحنت عليه امرأة سمينة، مشغولة بالطبخ. كانت ترتدي فستاناً يغطيه رداء كامل. وتذكرت ان اغلبية نساء اميركا الجنوبية يرتدينه. ضمت شعرها في ضفيرة لفتها أعلى رأسها. واذ طرق سمعها صوت الخطوات، رفعت رأسها واطلقت صرخة فرح. رمت الملعقة جانبا وتوجهت نحو ميندوزا بسرعة لتضمه بين ذراعيها.

رأت سوزان طفلين راقبا القادمين بهدوء. ابتلعت ريقها دلالة القلق. لا بد ان المنزل لا يسع العائلة فكيف يقضيان ليلتهما هناك ؟ بقيت على صهوة جوادها تراقب البناء ثم جاء ميندوزا ليتحدث اليها.

قال :

«انه بيت صديقي رامون . انها لا يتحدثان الانكليزية لذلك اقبل [illegible] ترحيبه مع زوجته، ماريا بيقائك في بيتهما.»

«لكننا لا نستطيع.»

اعترضت سوزان بصوت منخفض.

«لا تستطيع ماذا ؟»

سأل ميندوزا مقطباً جبينه وقد بدت على وجهه دلائل الغضب.

قالت سوزان :

«انهم لا يملكون الكثير ولا نستطيع التطفل عليهم.»

فأجاب ميندوزا منفعلاً

«انك خبيرة في اهانة الناس يا سنيوريتا. وارجوا أن تظهري مخالبك لي وحدي اذ لن ادعك تجرحين مشاعر ماريا بالقول إن بيتها لا يصلح لبقاء امرأة انكليزية ترفة. ترجلي عن حصانك الآن والاّ سحبتك بنفسي.»

ترجلت عن ظهر حصانها بسرعة. لا بد أنه اساء تفسير اعتراضها، وفكر بانها لا ترغب بالبقاء مع اصدقائه تكبراً وليس تقديراً لظروفهم. ولكن لم تهتم بتفسيراته ؟

[illegible] مع آرائه الى الجحيم.

سارت امامه شامخة بانفها متوجهة نحو مضيفيها إلا انها فشلت في ذلك حين تعثرت بحجر في الطريق وكادت ان تسقط على وجهها. راقبها ميندوزا ببرود بينما اسرع رامون وماريا لمساعدتها على النهوض وأخذها الى كرسي هزاز وضع خارج المنزل، حيث تركاها هناك واصطحبا ميندوزا الى داخل المنزل. فكرت بانه كان في استطاعته مناقشة أي شيء أراد بحضورها لكنها اعترفت بفرحها لجلوسها على كرسي بدلاً من صهوة حصان، كما وجدت مروحة لطيفة على المنضدة القريبة فبدأت تحركها امام وجهها لتحصل على الهواء المنعش.

لم تتعرف على مكان[illegible] خاصة بعد سلسلة التس[illegible] والانحدار، وقد قاما بها طوال الرحلة واغلقا عينيها [illegible] اغفاءة قصيرة [illegible] منها حين احست بيد تلمس ذراعها. رأت طفلة تقف الى جانبها و[illegible] يدها قدح عصير بارد.

«شكراً»

قالت سوزان

وتناولت القدح وحاولت أن تتذكر ما قرأته في كتاب تعليم الاسبانية لتسأل الطفلة عن اسمها وعمرها، وحين نجحت اخيراً لم تجبها الطفلة بل ضحكت ووضعت يدها على فمها وابتعدت.

شربت سوزان عصيرها وتعجبت لبرودته ثم فكرت أنه لا بد وأنه مليء بالجراثيم.

راقت لها فكرة الاصابة بالاسهال كحل يخلصها من تنفيذ وعودها الى ميندوزا .

سمعت صوت خطوات قريبة منها، ثم قال ميندوزا لها :

« ماريا ستطبخ لنا بعض العشاء، لكنها طلبت مني أن اسألك اذا كنت ترغبين ان تأخذي حماماً اولاً.»

واذ رآها تنظر حولها باحثة عن الحمام واصل حديثه:

«انت محقة بالطبع. ليس هناك حمام ولكن هناك حوض للاستحمام، كما أن ماريا مستعده لغسل ملابسنا.»

«لكننا لا نستطيع تركها تفعل كل هذا لنا.»

اعترضت سوزان.

«لم لا؟»

سأل ميندوزا

«أعتقد أن السبب واضح، قد يكون استغلال الشخصيات جزءا من شخصيتك لكنه ليس جزءاً مني.»

« ماريا لا تعتبر مستغلة، اما بالنسبة إليك يا سوزان ، فانني احذرك بانك ستدفعين ثمن اهاناتك وسخريتك مني كاملة.»

قررت ان تتجاهل ملاحظته الاخيرة وواصلت اعتراضها:

«ترى ماذا تشعر ماريا حيال كل هذا ؟ بالتأكيد لا استطيع سؤالها لانها لا تتحدث الانكليزية ولكن هل تعتقد فعلاً بانها سعيدة للعيش والعمل في منزل وكأنه على وشك التهدم أمام اصغر عاصفة وبلا شروط صحية ملائمة؟»

«هكذا تتحدث طفلة الغرب المدللة. نعم ايتها الفتاة الانانية الباردة، انها تتمتع بذلك، وهل تعرفين لماذا؟ لان رامون رجلها وقلبها ملك له واينما توجه ستتبعه، وأي حياة سيحيا، فانها ستختار العيش معه. في بلدك حيث الطلاق يتم بسرعة، يبدو انك نسيت ان الزواج رابطة مقدسة تربط الزوجين حتى الموت.»

«انه لامر غريب أن اسمعك تلقي موعظة عن قدسية الزواج، حيث أنني فهمت، مما سمعته في اسانكشن، انك متخصص في خداع النساء المتزوجات.»

«عليك اذن تصديق كل ماسمعته. ان لك لساناً يقرص كالعقرب. اظن ان الوقت حان للبدء بترويضك.»

انتصبت سوزان واقفة بغضب بدون الانتباه الى قدح العصير الذي سال

على بنطالها.

قالت:

«لن تستطيع ترويضي ابداً. فاناس دي ميندوزا مهما كانت اساليبك.»

دهشت لثبات صوتها امامه، واضافت:

«لانني ملك نفسي ولست ملكاً لاي شخص آخر وباستطاعتي اهمال وجودك الى حد بعيد.»

فرد ميندوزا:

«اذا كان السلوك الذي رأيته اخيراً جانباً من شخصيتك، فلا اظن انني اريد الحصول عليك، والان، هل تريدين مني اخبار ماريا انك لا تريدين الاستحمام؟»

احنت رأسها محدقة في الارض الترابية وكبتت رغبتها في البكاء، قالت:

«كلا، اريد الاستحمام، هل استطيع أن اذهب الان؟»

«كلا،ستدعوك حين يكون الماء معداً.»

استدار ميندوزا ليختفي في داخل المنزل.

عادت سوزان الى كرسيها لتتخلص من ارتعاش يديها، أي جنون دفعها لتقول ما قالته ؟ تساءلت وهي تشعر بعزلتها أكثر من أي وقت مضى.

ارادت ان تجرح مشاعره إلا انها انتهت بايذاء نفسها بدلا منه. صحيح انها تفادت الاستسلام له الا أن هذا لا يضمن نجاحها لحين عودتها الى بريطانيا. تذكرت انها لا تستطيع نسيانه بسهولة. فخلال ايام قليلة من لقائه، تغيرت حياتها وافكارها ومشاعرها بشكل كلي وسيتوجب عليها تغيير ذلك كله بعد مغادرتها كولومبيا.

لم تعرف كم بقيت من الوقت تحدق في الفضاء، الا أنها استطاعت القيام اخيراً، نظرت باشمئزاز الى بنطالها الوسخ. ربما ستقبل باقتراح ماريا بغسل ملابسها، كما انها مستعدة للاستحمام حالاً. ترى هل أعد كل شيء؟ ربما نادتها ماريا بينما كانت جالسة تحلم احلاماً مستحيلة.

دخلت الى البيت ووجدت نفسها في غرفة مربعة كبيرة، ورغم بدائية المكان،

بدا كل شيء لامعاً، نظيفاً، لا أثر للغبار عليه، كما غطيت الجدران بصور ملونة اقتطع بعضها من المجلات والبعض الاخر من كتب دينية.

كانت الغرفة خالية، نادت بصوت منخفض، ففتحت الباب ماريا وجاءت مرحبة بها بابتسامة كبيرة. سألت سوزان ماريا عن الحمام، ففهمت الاخيرة ما عنته وقادتها فوراً الى مكان صغير يقع في الجهة الخلفية من المنزل اعدت فيه النار وعليها قدر نحاسي كبير يغلي فيه الماء.

ذعرت سوزان اذا ظنت ان ماريا تتوقع منها الجلوس في القدر الا أنها استعادت طمأنينتها حين ناولتها ماريا سطلاً مليئاً بالماء البارد وقادتها الى باب آخر.

كان البيت بشكل حرف اللام، نهاية الحرف تمثل الجانب الخلفي من المنزل. وابتسمت سوزان لماريا وفتحت الباب حذرة ألا يسيل بعض الماء على الارض.

كانت محقة اذن، انها غرفة نوم ذات سريرين. في وسط الغرفة وضعت ستارة قديمة لتشعر بانها في مكان خاص للاغتسال إلا أنها لم تكن تعلم ان الحوض سيكون فيه دي ميندوزا .

كان يحلق وجهه مستخدماً سكين حلاقة وممسكاً باليد الاخرى مرآة صغيرة. نظر اليها بلا اهتمام ثم قال:

«آه، انه الماء الموعود. كم هو رائع أن تساعدي ماريا في جلبه بدلاً منها.»

«كلا لم افعل ذلك او على الاقل ظننت ان الماء لي ولكن لم اعطتني الماء رغم علمها بوجودك هنا ؟»

وضع سكين الحلاقة والمرآة على الارض بجانب الحوض ثم غسل وجهه. قال:

«ماريا روح عاطفية، وبما انك مسافرة معي فقد تبادر الى ذهنها بعض الاستنتاجات غير الناضجة عن علاقاتنا»

ثم مد يده الى الجانب الآخر من الحوض وجذب سيكاراً.

«سيبرد الماء.»

ثم اضاف بعد انتظار قصير:

الهدف من وجودك هو صب الماء في الحوض، وقبل أن تعترضي أن التعري في اي وقت كان ليلاً او نهاراً يزعجك، انبهك الى انني مغطى حتى خصري بالماء ورغوة الصابون.»

«سأترك السطل هنا وتستطيع اخذه بعد مغادرتي.»

«لن افعل هذا، بل سأنادي ماريا المشغولة، بلا شك في اعداد الماء الساخن لك وطبخ العشاء لنا ويجب ألاّ نزعجها، ستظن الامر غريباً اذا ما عرفت بانك غير مستعدة لاداء هذه الخدمة الصغيرة لرجلك.»

ترددت سوزان ، اذ عرفت نوع اجابته اذا اعترضت بأنه ليس رجلها. ولا بد انه رسم لماريا صورة اخرى عن علاقتهما، وأثار الضجة حول سكب الماء في الحوض سيثير اضطراب المرأة الطيبة بلا داع. فحملت سطل الماء وتقدمت مضطربة، قالت :

«هل تدخن دائماً في الحمام؟»

سألت سوزان.

«حين اكون وحدي فقط.»

اجاب ميندوزا وهو يكشر بتهكم حين لاحظ حمرة خديها خجلاً لما عناه بكلماته. ولكنه اضاف:

«لا تخشي شيئاً، اذ لا يتسع الحوض لاكثر من شخص واحد. في استطاعتك سكب الماء.»

أرادت ان تصب على رأسه إلا أنها لم تستطع لثقل السطل.

قالت بسخرية:

«اتمنى أن يحرق الماء جسدك.»

«لحسن الحظ لا تريد ماريا رؤيتي محروقاً، ولا تشاركك سوء الرأي عني احذري من اظهار مشاعرك العدائية ضدي أمامها لانها كانت مربيتي اثناء فترة طفولتي.»

«مربيتك.»

نظرت اليه بدهشة ووضعت سطل الماء على الارض، ثم سألت ايضاً:
«هل توفيت والدتك وانت صغير؟»
«والدتي ما تزال تعيش.»
«آه، فهمت اذن.»

غير انها في الحقيقة، لم تفهم شيئاً. التفسير الوحيد الذي تبادر الى ذهنها هو انه من عائلة اغنى مما توقعت. وإن صح ذلك، فلماذا يعمل كدليل؟ لم يكن لذلك تعليل واضح، ما لم يكن متمرداً على عائلته وتقاليدها، فأجبرته على مغادرتها.
«اذا رغبت في البقاء، فارجو ان يكون لبقائك فائدة على الاقل.»

تراجعت سوزان الى الخلف.

تعلّق ميندوزا ساخراً أيضا :
«انك نتاج عجيب لمجتمع تختلط فيه المفاهيم كما ارى.»

انحنى الى الامام وهو يراقبها.

قالت سوزان:
«ليس هناك شيء رائع في تنظيف رجل او غسله، كما لا تهمني مسألة الاهتمام بك اطلاقاً.»
«آه، هل هذه اضافة الى قائمة ممنوعات المرأة المتحررة؟»
«لا تكن سخيفاً.»
«بالعكس يا سنيوريتا. أرجو الآن ان تساعديني، حيث سأفعل الشيء ذاته حين تحتاجين.»

اضاف بسخريته المعتادة.
«لن افعل اي شيء. حسنا سأساعدك بشرط واحد، أن تبقى بعيداً عن هذه الغرفة حين أستحم، موافق؟»

صمت ميندوزا للحظة متأملاً اياها ثم هز كتفيه دلالة الاستسلام:
«حسنا يا سوزان ، اذا كان الامر مهماً الى هذا الحد بالنسبة إليك، فانني موافق.»

تنفست بعمق ثم بدأت تساعده. بعد قليل أحست انها دائخة والجفاف يغمر

حلقها. شعر، هو الآخر، بالتوتر. استطاعت ادراك ذلك وارادت تحطيم جدار الصمت بينها وإلا أدى صمتها الى حدوث كارثة.

انقذتها رؤيتها لندبة عميقة في كتفه، فقالت لتنقذ نفسها من صمته:
«آه، متى حدث ذلك؟»
«حين كنت في أليتوي. نربي هناك الثيران للحصول على اللحم وارسال بعضها الى حلبات المصارعة، مصارعة الثيران، وقرر أحدها تجربة حدة قرنيه في كتفي.»
«كان في الامكان قتلك في الحادث.»
«كانت ضربة سريعة، وكنت محظوظاً. يقول البعض إن حياتي مصانة.»
«أو ان الشيطان يحمي اتباعه.»

وقفت مترددة وايقنت ان العقل يملي عليها الهرب فوراً، غير انها بقيت واقفة، ثم قالت فجأة:
«ان عضلات كتفيك متوترة مثل خيط مشدود، ربما أستطيع مساعدتك اذا سمحت بذلك.»

ولم تنتظر جوابه بل وضعت يديها على كتفيه وبدأت تفركها. كان ذلك شيئاً تعلمته منذ سنوات، إلا انها لم تلجأ الى استخدامه الا نادراً. حين يسمح لها جدها، أحياناً، لفرك كتفيه ليتخلص من صداع ألم به او اصابه، او ربما طلب منها أحد زملائها في المسرح مساعدته في التخلص من توتر الظهور فوق خشبة المسرح للمرة الاولى. إلا انها ولا مرة قامت بتدليك رجل غريب. كان مسترخياً تحت تأثير اصابعها وأحست هي بذلك.

قال ميندوزا:
«لأصابعك خفة الفراشة، لها لمسة شافية. هل تدربت في هذا الموضوع؟»

فهزت رأسها وهي تجيب:
«منذ سنوات، حين كنت صغيرة، رغبت أن أكون ممرضة، إلا أنني لم اكن جدية. ولحسن الحظ لم يتم الامر وإلا لما وافق جدي اطلاقاً.»
«ألا تحوز مهنة التمريض رضى جدك؟»
«انه من النوع القديم، عجوز، ولو أنه عاش في زمن فلورانس نايتنجيل، اول

ممرضة. بالمعنى الحديث، في التاريخ، من مزاولة المهنة. لكنه، عموماً لا يوافق على اية مهنة للمرأة. أعتقد انه وافق على اتجاهي نحو التمثيل لأنه ادرك ان مجال العثور على عمل صعب جداً.»

«كان افتراضه خاطئاً.»

«نعم. كنت محظوظة جداً، حيث أديت الادوار الجيدة في الاوقات الملائمة.»

«وهل تعتقدين انك تؤدين مهمة خاصة من خلال التمثيل؟»

أجابت سوزان:

«نعم، بالتأكيد. اتذكر انك سألتني ذلك من قبل.»

ولكن هل كانت معنية بالتمثيل الى ذلك الحد ؟ مثلت لانها تمتعت بالتمثيل ولكن ماذا لو اخبرها احدهم عن عدم كفاءتها للتمثيل، او اذا طلب منها ذلك، هل ستتأخر ؟ انها فكرة لم تخطر ببالها من قبل.

ها هو الفخ يضيق من حولها ولا تستطيع الآن لوم أحد غير نفسها. وواصلت تدليك كتفيه بحركات آلية لتريح عضلاته ولكن من يستطيع تهدئة ذاتها الباحثة عن الحب؟ لا أحد غير الرجل القريب منها، ولكنها لن تسمح بذلك خوفاً من ألم الوحدة والهجران فيما بعد.

قالت فجأة:

«هل تريد اخباري عما حدث لعينك؟ هل كان حادثاً آخر اصبت به حين كنت راعياً للبقر؟»

أحست سوزان ان ميندوزا انكمش فوراً، فقالت:

«آسفة. ما كان يجب أن أسألك. هذه الذكرى مؤلمة اذن؟»

«انني احمل في وجهي ما يذكرني دائماً كلما نظرت الى وجهي في المرآة. كلا لم يكن حادثاً. بل جرى ذلك منذ وقت طويل وبشكل متعمد.»

وقفت جامدة في مكانها، وسألت:

«متعمد ! لا افهم ما تقول.»

«ساوضح لك ذلك. اغتيل، منذ ثلاثين عاماً، أحد قادة البلد في شوارع بوغوتا . ادى قتله الى حرب أهلية استمرت عشر سنوات. وفرت الحرب الفرصة لبعض

الناس فرصة القتل والنهب والاغتصاب، فرصة الاثراء على حساب الآخرين. نموذج هؤلاء، كان شخصاً اسمه خوان رودريغو.»

قالت سوزان ترجوه:

«اذا كانت الذكرى مؤلمة، لا شيء يجبرك على اخباري.»

«هل هناك طريقة ناجحة للهرب من الالم؟ تحدثت عن الندبة في ظهري كما لو كانت مهمة، إلا انني اشعر بانها لا شيء بالمقارنة مع الندبة التي تركها خوان رودريغو في روحي، وما العين غير ندبة بسيطة قياساً الى ندبة القلب. كبرت تحت ظل الخوف. شعرت أن الامر انتهى حين كنت في التاسعة من عمري. لم يكن والدي متأكداً من قناعتي. كان قد هيأ لنا، قبل الحرب بسنوات، ملجأ للاختفاء فيه عند الحاجة، مكاناً يتسع لي، ولاختي وأمي. سمعنا ان رودريغو لا يزال يواصل حملات الاعتداء، إلا أننا لم نهتم لذلك كثيراً خاصة بعد سماعنا للاخبار المشجعة من بوغوتا بقدوم الجيش قريباً ومساعدته للناس على التخلص من رجال العصابات. كان ذلك ما أقنعنا انفسنا به. وفي صبيحة احد الايام شاهدنا دخاناً يتصاعد من احد البيوت القريبة فدفعنا والدي للاختفاء في الملجأ. بكت والدتي طالبة منه المجيء معنا فوعدها بالعودة بعد ان ينهي بعض أعماله. وقفنا هناك صامتين بعد أن قبلنا والدي. اتذكر كيف أن والدتي امسكت برأسه ونظرت الى وجهه فترة طويلة وكأنها عرفت أنها لن تراه مرة اخرى، ثم تركنا وبدا لي أننا انتظرنا فترة طويلة خاصة وان والدتي واختي نامتا فزحفت خارجاً وذهبت الى البيت.»

توقف ميندوزا صامتاً لوهلة، وشعرت سوزان برعشة غريبة تسري في جسدها. ثم قال:

«كان رودريغو هناك مع والدي. أراد رودريغو الحصول على بعض المعلومات من والدي الذي رفض ذلك، لذلك بدأوا بتعذيبه. سررت لأن والدتي لم تر ما جرى لوالدي اثناء ذلك.»

قاطعته سوزان بصوت متردد قائلة:

«سنيور ميندوزا، اعتقد...»

ثم صمتت استجابة لحركة يده الرافضة.

«أظن انني صرخت لأن أحد الرجال عثر علي وأخذني الى الغرفة حيث كان والدي على وشك الموت، ونظر الي بشكل مؤلم. علمت أنه لم يهتم بما جرى له لكنه لم يستطع تحمل رؤيتي متألماً. إلا انه نجى من ذلك على الاقل حين مات بعد لحظات. غضب رودريغو وظهر ذلك واضحاً في ارتجاف تكيه وسمعت فيما بعد أن ذلك كان علامة سيئة ولم أستطع التوقف عن النظر اليه. كان في الخامسة والعشرين من عمره فقط إلاّ أنّ صيته السيء شاع في كل مكان، ثم استدار في اتجاهي قائلاً: ـ اذن ترك لنا الميت خلفه القذر لم تحدق في وجهي بهذه الطريقة؟ ماذا ترى؟ فأجبته: ـ ارى الشيطان. وللحظة ساد الصمت ثم ضحك رودريغو قائلاً: ـ انتظر جيداً اذن. لان وجهي آخر شيء ستراه ـ واشار برأسه الى احد ارجاله.

«لكنك لا تعني... أه، انه لم يفعل.. كنت طفلا فقط»

تمتمت سوزان بكلمات متقطعة.

«الا أنني كنت طفلاً تفرس في ملامح وجهه، ولم يترك من قبل رودريغو أي شاهد حي لئلا يعطي اوصافه الى السلطات المحلية. إلا انني، كما اخبرتك سابقاً، احمل في داخلي روحاً مصانة. فما ان بدأوا تعذيبي حتى هاجمت المكان دورية شرطة، فوجدوني متكوماً على جسد والدي وكان الوقت متأخراً لانقاذ عيني.»

«يا له من امر مخيف! وماذا فعلوا لرودريغو حين ألقوا القبض عليه؟»

«لم يلق القبض عليه حتى الآن. انه حي وطليق، إلا انني سألتقي به ذات يوم. لهذا أواصل وضع الرقعة على عيني لتذكر عندها الطفل الذي أراد قتله.»

ثم نظر اليها قائلاً:

«هل صدمك حديثي؟»

«كلا.»

اعترفت سوزان بأمانة واضافت:

«لا اعرف انني لو كنت في مكانك لقمت بالشيء ذاته.»

«أحسنت يا سنيوريتا.»

عاود الحديث بلهجته الساخرة:

«إلاّ انه من المؤسف اعاقة خططي للانتقام بالموت نتيجة اصابتي بالسل لبقائي في الماء المثلج لفترة طويلة. ارجو اذن أن تكوني لطيفة معي وتناوليني المنشفة.»

«نعم، بالطبع، أعني لا.»

تاولته المنشفة بسرعة وقالت:

«الآن ارجو بقاءك في مكانك حتى اغادر الغرفة.»

«يا لك من متناقضة، سوزان. فمنذ لحظات ساعدتني للتخلص من التوتر والتعب، وها انت تعاودين دور الانكليزية المحافظة.»

فأجابت سوزان:

«ان لي مشاعري الخاصة.»

وسارت متجهة نحو الباب فسمعته يتحرك، فاستدارت قائلة:

«طلبت منك البقاء في مكانك.»

«لا يتوجب علي اطاعتك يا سنيوريتا. صحيح ان رودريغو شوه نظري إلا انه لم يمس حواسي الاخرى. لقد أبلغتني اصابعك معان كثيرة.»

«انك تتخيل الاشياء.»

حدقت في الميدالية المعلقة على صدره، وقالت:

«يجب أن اذهب الآن. لا بد ان العشاء معد وانني جائعة جداً.»

«انا ايضا جائع. ثم لماذا لا تتوقفين عن خداع نفسك يا سوزان؟ انك لا تهربين مني بل من نفسك.»

فقالت سوزان مجيبة:

«هل هذا ما يريد غرورك اقناعك به؟ ارجو ان تتركني الآن.»

«لكنني لا اجبرك على اي شيء. كل ما عليك فعله هو ان تتركيني لم لا تهربين؟»

«لا أدري.»

اجابت سوزان.

«لكنني ادري.»

حينئذ سمعا طرقاً خفيفاً على الباب وصوت ماريا يقول:

«سنيور، سنيوريتا... العشاء جاهز.»

تنهد ميندوزا وقال:

«يجب ألاّ ندع ماريا تنتظر. ابقي معي حتى نخرج معاً.»

«كلا، لا استطيع ذلك.»

هزت رأسها محاولة السيطرة على انفاسها، فقال ميندوزا مخاطباً اياها:

«نعم تستطعين، ولكن اتركيني اذا كنت لا ترغبين في ذلك.»

وهز كتفيه تعبيراً عن لا مبالاة، وقال:

«أسف لانك ستنتظرين حتى انتهاء العشاء لتأخذي [illegible].»

اجابت سوزان فوراً وبحدة:

«لا يهم ذلك.»

ثم سارت باتجاه الباب، ثم ترددت قائلة:

«لم تنس وعدك، اليس كذلك؟»

«وعدي باحترام خصوصيتك؟ كلا لن أنس ما دمت لن تدعيني انتظر فترة طويلة.»

واصل، بعد لحظة، كلامه بعد ان لاحظ التساؤل على وجهها:

«قد ارغب في استخدام هذه الغرفة.»

فأجابت سوزان:

«آه، سأسأل ماريا اذن ان تضع الحوض في غرفتي.»

فاطلق ضحكة عالية وقال ساخراً:

«انك لا تقضين ليلتك في فندق الهيلتون [illegible] كي تعلمين، وماريا لا تمنح غير هذه الغرفة للمسافرين. ستشاركيني اياها الليلة ما لم تفكري بمكان أخر تهربين اليه.»

ضحك مرة ثانية. شعرت ان صدى ضحكاته يلاحقها الى غرفة الطعام حيث وجدت ماريا وعائلتها في انتظارها لبدء تناول وجبة العشاء.

٧ ـ قولي إنك لي.

ظنت سوزان انها لن تستطيع تناول العشاء، إلا انها حين رأت الطعام موضوعاً على المائدة: فطائر محشوة باللحم المفروم والبيض، بدأت بالتهامه بسرعة. حتى وصول ميندوزا، بعد دقائق، جذاباً اكثر من اي وقت مضى مرتدياً بنطالاً اسود ضيقاً وقميصاً ابيض أظهر لون بشرته البرونزي. لم يستطع افساد شهيتها. ومنذ لحظة قدومه احست بالاضطراب يعاودها وجلس الى جانبها قريباً جداً. لم يكن هناك شيء يشغلها أثناء تناولها الطعام غير التفكير به وابعدها حاجز اللغة عن متابعة حديثهم. بقيت ضحية المكان الخاصة، رغم ان ميندوزا حاول جهده ترجمة بعض ما قيل لها.

«لحسن الحظ انك لا تفهمين ما يقال.»

خاطبها [illegible] اياها [illegible] الساخنة. ثم اضاف:

«ان [illegible]ريا مصرة على القول بانني كنت طفلا هادئاً كالملاك. انا متأكد بانك لا توافقينها الرأي.»

ابتسمت سوزان ابتسامة صغيرة، مدركة ان ماريا تراقبها بحنان اموي.

تساءلت عن عمر ماريا . لا بد انها في الاربعينات من عمرها واطفالها ما زالوا صغارا، فلا بد انها كانت صبية حين عملت كمربية للسنيور فاتاس دي ميندوزا.

قال ميندوزا مجيباً:

«كانت في سنها الخامس عشر حين استخدمتها أمي. كانت اكبر اخواتها التسعة، لهذا كانت تعرف كيف تهتم بالاطفال، وتحبهم ايضا. أخبرتني منذ قليل أن امنيتها في الحياة هي أن يكبر اطفالها لتأتي بعد ذلك لرعاية اطفالي.»

وضعت سوزان شوكتها جانباً وتخيلت ميندوزا كأب. أب تلين ملامحه القاسية حين ينظر الى الطفل الملفوف بغطاء ابيض بين يديه. وتذكرت كيف ركض ابن ماريا باتجاهه وكيف تلقاه ميندوزا بين ذراعيه بلا تردد. حتى تلك اللحظة لم يخطر ببالها ان تتصوره رجلاً يحب الاطفال أو رجلاً عادياً يطمح بالاستقرار وتكوين أسرة يهتم بها. وتذكرت ما اخبرها عن لينوس وكيف انه قد يجد مستقبله هناك. تساءلت عما سيكون بيته ومستقره في لينوس .

سوزان ما تزال لا تعرف الكثير عن ظروف ميندوزا العائلية، إلا ان بعض ما ذكره لها أكد خطأ انطباعها الاول عنه. لم يكن بالتأكيد مجرد راعي بقر في السابق. اضافة الى ذلك كانت ماريا مربية له. هذا يعني ان عائلته ثرية وذات نفوذ، ولكن مجرد عدم محاولته اخبارها عن الموضوع عنى انه لم يهتم بتعريفها بوضعه. ثم فكرت أن لا فائدة من التفكير بتلك الطريقة خاصة وانها لن تبقى فترة طويلة لتأسف على ذلك.

حين انتهت وجبة الطعام، نهضت سوزان حين لاحظت قيام ماريا لتساعدها على اخلاء المائدة. إلا ان ماريا اومات طالبة منها العودة الى كرسيها. قدم اليها شراب منعش وبدأت تشرب ببطء.

اخلت ماريا المائدة وتركت الغرفة مع الاطفال، ربما لتضعهم في الفراش وغابت فترة طويلة لتعود بعدها طالبة من سوزان الذهاب معها. اكتشفت سوزان سرية الطلب، اذ أعدت لها ماريا الحمام ثم طلبت منها خلع ملابسها. كل ذلك تم بالايماءات وحركات اليد. ترددت سوزان ولكن لم يكن

امامها غير الرضوخ لطلب ماريا لانها لم تستطع افهامها انها ترغب بالتحمم لوحدها. ثم ان استدعاء ميندوزا للترجمة كان آخر احتمال تفكر فيه.

نظرت الى الماء حيث طفت عدة اوراق خضراء، تبعث رائحة زكية. نظرت الى ماريا فرأتها واقفة الى جوار أحد الاسرة حاملة بيدها كيس متاعها وباليد الاخرى قميصها الممزق. بدت على وجهها الحيرة ثم نظرت متسائلة بكلمة واحدة: سنيور؟

صفا وجهها حين نفت سوزان التهمة، وبدأت خلع ملابسها. شعرت براحة كبيرة وهي تغطس في الماء نافضة عن نفسها متاعب اليوم واوساخه. ابتسمت لها ماريا بعد ان جمعت ملابسها. ثم اشارت بيديها عارضة على سوزان ان تغسل شعرها، فابتسمت موافقة.

فكت سوزان عقدة شعرها ثم فركت رأسها بالصابون والماء. تراءى لها مجموعة من الاطفال، عيونهم سود ويقفون في صف واحد خارج الحمام في انتظار أن تغسل لهم ماريا شعورهم، ثم ادركت والالم يعتصر قلبها، انها تعرف اولئك الاطفال. ستكون زوجة أيضاً، ولكن من ضواحي بوغوتا الثرية. واحدة مثل ايزابيل أرفاليز لم تعمل ولم تكن في حاجة للعمل في حياتها كلها. مستعدة لقضاء اليوم بكامله محافظة على جمالها من أجل زوجها.

حين انهت حمامها، ساعدتها ماريا على الخروج من الحوض، ولفت حولها منشفة كبيرة، ثم انحنت سوزان فجففت ماريا شعرها بطريقة ساعدتها على التخلص من قلقها واوهامها وتركتها طفلة خالية من الهموم وتمنت لو استطاعت البقاء الى الابد ورأسها في حضن ماريا. الا ان ماريا دفعتها للنهوض. فقامت وتوجهت حيث تركت اشياءها قرب السرير. مدت يدها لتلتقط قميص نومها فلم تجده، فوقفت واجمة للحظات وهي تحاول ان تتذكر انها نست جلب قميص النوم، وقلبت ملابسها عسى ان تجد قميص النوم المختفي، فلم تجده.

اقتربت ماريا من سوزان مطالبة اياها ان توضح ما تريد، فنجحت سوزان في الاخير في تذكر ما يطلق على قميص النوم بالاسبانية. التفتت ماريا الى بقية الملابس المتناثرة والقت نظرة سريعة عليها ثم ربتت على كتف

سوزان قبل ان تختفي من الغرفة بسرعة.

عادت ماريا بعد لحظات حاملة كومة من قماش ابيض ظنت سوزان انها شراشف الا انها سرعان ما ادركت بانها كانت قميص نوم قديم وثمين. أكمام طويلة ورقبة عالية، مزينة بدانتيل صنعت يدويا مما اضفى عليه قيمة وجمالاً. كان في حالة جيدة باستثناء بعض الاجزاء الصفراء حيث طوي منذ فترة طويلة.

حاولت سوزان الاعتراض، فقد كان شيئاً ثميناً وجميلاً ومن الافضل الاحتفاظ به إلا أن ماريا رفضت الاصغاء اليها، وقبل ان تواصل الاعتراض سحبت ماريا المنشفة من حولها والبستها قميص النوم. ثم جلبت فرشاة للشعر ومشطت شعرها حتى صار ناعماً، يلمع مثل حرير عسلي اللون على كتفيها. واخيراً بدأت ماريا جمع الملابس المتناثرة على السرير والارض واطفأت المصابيح باستثناء الموضوع على الطاولة الصغيرة بين السريرين.

بقيت سوزان لوحدها، جلست على حافة السرير وفكرت بما فعلته : تحممت تعطرت، مشطت شعرها ثم ارتدت قميص نوم ابيض. لا بد انها تشبه عروساً من العصر الفكتوري، في ليلة عرسها. اضحكتها الفكرة وقالت لنفسها بانها من اكثر النكات التي سمعتها في حياتها قوة.

نشرت سوزان الطيات البيضاء حولها. كان القماش ساحراً وله رائحة زكية كما لو انه حوفظ عليه مع بعض الاعشاب البرية المجففة. لا بد ان الدانتيل من صنع راهبة اسبانية، هدية الى احدى الفتيات للاحتفال فيما بعد بزواجها.

لا بد ان الراهبة ستصاب بصدمة عنيفة لو عرفت أنّ من ترتدي الفستان هي فتاة هادئة تسافر مع رجل لا تعرف عنه الكثير.

وقفت وكان قميص النوم يغطي قدميها الحافيتين. رفعت الطيات قليلاً وهي تخطو الى الامام. لم تسمع الباب ينفتح لكنها احست فجأة بحضوره يمتلك كلّ حواسها. كان واقفاً قرب الباب محدقاً فيها بصمت. نظرت اليه فبدا جامداً، ناظراً اليها وهو لا يصدق عينيه.

ارادت ان تمزح لتتفادى على الاقل، احراج اللحظات الاولى، إلا انها لم تستطع التحدث. كان ذهنها خالياً من أي فكرة اخرى وكل ما احست به هو

الحاجة الى وجوده الى جانبها. تسارعت دقات قلبها.

تحرك ميندوزا أخيراً بعد ان اغلق الباب بركلة من قدمه. احست بتوتر يشملها كلها توجه الى السرير الآخر وبدأ ينزع قميصه، ثم قال:

«اقفزي الى الفراش قبل ان تصابي بالبرد، كما لا تنسي ان تديري ظهرك لي.»

نامت على جانبها محدقة في ظلمة النافذة ذات الشبك المانع لدخول الحشرات، محاولة عدم الاصغاء لحركاته وهو يخلع ملابسه ثم سمعت صوت السرير حين اضطجع وتلا ذلك اطفاء المصباح.

لفترة طويلة بقيت صامتة غير مصدقة لما جرى ثم شعرت بقبضتها الباردة تضغط على شفتيها المرتجفتين.

كان الوقت متأخراً حين فتحت عينيها في اليوم التالي، وأدركت ذلك من مرآى زاوية اشعة الشمس المنتشرة. جلست ونظرت الى السرير الآخر إلا انه كان خالياً والبطانيات مرتبة، وكأنه خلي منذ فترة طويلة.

رفعت الغطاء عنها ووضعت قدميها على الارض فأحست بالدوخة كما لو انها قضت الليلة بكاملها صاحية، إلا ان ذلك لم يكن صحيحاً حيث نامت بعض الوقت برفقة احلامها.

ووضع احدهم، ربما كانت ماريا ، اناء من الماء بين السريرين فاغتسلت بسرعة متمتعة بالاحساس البارد على وجهها وجسدها، ثم طوت قميص النوم بعناية ووضعته عند نهاية السرير وفكرت بانها لن تحتاجه ثانية.

ارتدت ملابسها وذهبت الى باحة المنزل فلاحظت ملابسها نظيفة ومعلقة على حبل وضع هناك تحت اشعة الشمس مع ملابس الاطفال.

وقفت هناك شاعرة بحرارة النهار في رأسها، فظهرت ماريا حاملة بين يديها سلة الغسيل فتألقت عيناها حين رأت سوزان ووضعت السلة جانباً، وسألتها ماريا بالاسبانية اذا ما كانت قضت ليلة سعيدة فاستطاعت الاجابة بالايجاب وشكرها على ذلك، ثم سألتها عن السنيور ميندوزا ، فظهرت على وجه ماريا علامات الدهشة، من الواضح انها توقعت معرفة سوزان بوجهته، ثم بدأت الايضاح بحركات اليد ففهمت سوزان ان ما ارادت قوله انه ليس

هناك، الا انه ذهب الى مكان ما برفقة رامون.

قطبت جبينها قليلاً، لانها توقعت منه اعداد الخيل استعدادا للمرحلة الاخيرة من رحلتها فقد اخبرته عن ضرورة الوصول الى ديابلو بأسرع وقت، لما الذي حدث؟

ولاحظت أن ماريا عرضت عليها الافطار فابتسمت موافقة ثم توجهت الى داخل المنزل وجلست خلف الطاولة بينما واصلت ماريا تحركها بسرعة لاعداد البيض المقلي لها، كان الافطار لذيذاً خاصة كرات الذرة المخلوطة بالجبن، بعد ذلك شربت كوبين من القهوة السوداء، واحست بانها اكثر راحة من السابق، ربما كان من الافضل لها عدم رؤيته في الصباح خاصة وانها لم تتنبأ بسلوكه.

وكانت الليلة السابقة اذلالاً آخر لها اذ لم يتوقع العثور عليها مغطاة بقميص نوم ابيض، حسناً انها الاخرى لم تتوقع ذلك، الاّ أنها لم تصدق أنها بدت بشعة الى هذا الحد، من الواضح ان المظهر الخارجي لم يكن ساحراً ما فيه الكفاية ليلائم ذوقه الراقي ربما كان سيفضل رؤيتها مرتدية فستاناً اسود شفافاً لا يخفي شيئاً من جسمها، فكرت سوزان بذلك لكن بمرارة.

ورأت ماريا تراقبها وربما معللة قلقها الظاهر لاسباب اخرى. نظرت الى ساعتها وادركت لرعبها ان الوقت يقارب الظهيرة، اين كان ميندوزا ؟ توجب عليهم السير منذ ساعات، ما الذي كان يفعله ؟ فرغم ما حدث بينهما، واجبه الاول هو أخذها الى ديابلو كما وعدها.

تجولت قليلاً في الباحة ثم ذهبت الى الشرفة ووقفت محدقة في الطريق الترابي إلاّ أنها لم تر ما يشير الى قدومه، تبعتها ماريا ووقفت تراقب هي الاخرى بقلق فشجعتها سوزان بابتسامة واختلست نظرة أخرى الى ساعتها.

قضت سوزان أغلب الساعات التالية متجولة من غرفة الى اخرى، ثم الى الهواء الطلق. وزاد من طول الانتظار أن ماريا رفضت مساعدتها بأدب، حتى انها حاولت الاستلقاء على سريرها، إلا أنها بقيت تتقلب من جانب لآخر الى حد قررت فيه النهوض، وما أزعجها أكثر هو أن ماريا لم تظهر قلقة او مهتمة لغياب الرجلين واكتفت بالابتسام كلما سألتها سوزان شيئاً.

في النهاية، ذهبت لتجلس على الكرسي الهزاز في الشرفة، دافعة نفسها الى الامام والخلف بسرعة. في الساعة الرابعة عصراً، تبادر الى ذهنها لاول مرة احتمال عدم عودته فوضعت المروحة اليدوية جانباً وتصلبت في مكانها، كلا إنها ليست فكرة صحيحة انه لا يستطيع هجري هنا، هل سيجرؤ على فعل ذلك ؟ كررت هذه الكلمات لنفسها بلا توقف.

صحيح أنها لا تعرفه جيداً إ لاّ أنّ وجوده أصبح ضرورياً، ضرورة الهواء بالنسبة إليها، وشابكت يديها سوية لتمنع ارتجافهما، ثم تنفست بعمق.

ربما كانت افكارها صحيحة، ربما كان هذا المكان نهاية الرحلة، وربما اعتاد اتباع السلوك ذاته مع بقية زبائنه تاركاً اياهم في منتصف الطريق. ربما ستأتي ماريا بعد فترة قصيرة لتخبرها بلغة الاشارات عن عودته.

«توقفي عن ذلك يا لها من سخافات.»

خاطبت سوزان نفسها، اذ لو قرر ميندوزا تركها لوحدها ما كان سيختار تركها مع اصدقائه، خاصة من كانوا يعتبرونه قدوة حسنة.

إلا أنّ لا شيء يغير حقيقة تركه إياها من غير توضيح، كما ان اختفاءه سيؤخر وصولهم الى ديابلو يوماً على الاقل.

واحست باحمرار وجهها للفكرة التالية، ربما قرر بأنه لا يريدها وجاء انسحابه طريقة مهذبة للتخلص منها بدون الحاجة لمواجهتها. نهضت بقلق وعادت الى المنزل، فوجدت ماريا جالسة خلف الطاولة وأمامها صندوق خشبي، ابتسمت بهدوء مما اشعر سوزان بالخجل لقلقها خاصة وان رامون اختفى مع ميندوزا ، وها هي ماريا تتقبل غيابه باعتباره احد حوادث اليوم العادية وليس نهاية العالم.

احنت ماريا رأسها داعية سوزان للجلوس الى جانبها لتنظر هي الاخرى الى ما في الصندوق شعرت سوزان بالذنب لان وجودها وقلقها يدفعان ماريا الى البحث عن طريقة ما لتسليتها، الا انها كانت عاجزة عن ابلاغ ماريا احاسيسها ففضلت الموافقة على الجلوس وابداء اهتمامها بكل ما سيعرض عليها

واكتشفت سوزان انها ليست بحاجة الى التظاهر بالاهتمام لانها اهتمت فعلاً بالصور الموجودة في الصندوق وبدأت ماريا تريها الواحدة بعد الاخرى، ميندوزا وهو حديث الولادة، وفي طفولته ثم في سن البلوغ وبعد فقده لعينه، وشعرت بالمرارة للفرق الهائل بين الطفل الوسيم والمراهق الكامل المسؤولية بكل كبريائه.

ثم عرضت عليها ماريا صور العائلة وارتها والدة ميندوزا الجميلة ذات العينين السوداويين، اما صورة والده فقد أثرت فيها بعمق حيث احست أنها تنظر الى ميندوزا نفسه ولكن اكبر بعشرين عاماً. كانت هناك صورة لها سوية ميندوزا على ظهر حصان بينما وقف والده الى جانبه حامياً اياه من السقوط. رأت سوزان عيني ماريا تمتلئان بالدموع بعد أن ناولتها الصورة وخمنت بانها التقطت قبل معاناة الاسرة للتجربة المخيفة بفترة قصيرة.

الا ان اهتمامها الأول كان منصباً على صور ميندوزا ولم تستطع اظهار الاهتمام ذاته نحو صور اخته التي واصلت ماريا مناولتها اياها بكل فخر، صور طفولتها، صور عرسها ثم طفلها الاول، إلا أن سوزان اقرت بجمال الفتاة ذات العينين المبتسمتين والوجه الخالي من السخرية والتهكم المميز لوجه اخيها

وبدأت ماريا جمع كنوزها التذكارية لاعادتها الى الصندوق وكانت سوزان تساعدها حين لاحظت مظروفاً تحتها. واذ رفعت الظرف لاحظت وجود صورة كبيرة في داخله بدا جزء منها ظاهراً فلم تتذكر أنها رأت الصورة، فظنت ان ماريا نست ذلك فبدأت بسحب الصورة من المظروف

«كلا سنيوريتا. كلا.»

قالت ماريا وحاولت سحب الصورة من يد سوزان، فايقنت ان ماريا لا ترغب برؤيتها للصورة إلا ان الوقت كان متأخراً، اذ وجدت الصورة بين يديها كانت الصورة تكبيراً فاخراً، التقطت خارج البيت نفسه. بدايتها ميندوزا مرتديا ملابسه السوداء كالعادة وناظراً الى الكاميرا بتجهم وهدوء، ووقفت الى جانبه امرأة شقراء ترتدي ملابس أميركية ثمينة. إلا أنها لم تنظر الى الكاميرا

نظرة سانحة. بل كانت تنظر الى ميندوزا نظرة متأملة اظهرتها الكاميرا بلا شفقة. سحبت ماريا الصورة من بين يدي سوزان بعجلة واعادتها الى مكانها في الظروف، حيث بدت قلقة وحزينة كأنها كشفت عن سر لم ترغب بكشفه.

واحست سوزان بالسعادة لانها لا تتحدث الاسبانية والا لاضطرت للتوضيح والاعتذار ولفعلت ماريا الشيء ذاته. كما أن ذلك جنبها مذلة السؤال عن هوية المرأة الاخرى وتذكرت ما أخبرها رامبرز في أسانكشن من تلك الملاحظة القصيرة كما في استطاعتها تخيل بقية القصة بسهولة خاصة بعد القائها تلك النظرة السريعة على الصورة.

جاء ميندوزا اذن، مع حبيبته الاميركية الى هنا، نهضت واقفة ثم توجهت نحو الباب محدقة في بقايا اشعة الشمس بعينين لم تريا شيئاً. احست بألم في حلقها وحرقة في صدرها، وارادت ان ترمي نفسها على الالواح الخشنة للشرفة وان تصرخ، لان مجرد تفكيرها ان ميندوزا احب امرأة اخرى، اهتم بها وعانقها اثار فيها غيرة مرة لم تعرف مثلها من قبل.

«الا انني لست الاولى في مشاعري هذه.» وتذكرت الصورة من جديد، لا بد انها التقطت في بداية علاقتهما وليس في نهايتها. ثم انها اذا سمحت لنفسها واظهرت حبها بوضوحها لرغباته. [illegible] يحضر هذا نهاية علاقتها به ايضاً ! وسيقابل آلامها واشواقها بلا مبالاة.

ارتجفت خوفاً من الفكرة إلا أنها قررت مواجهتها. لانها النهاية الوحيدة لعلاقة عاطفية عابرة.

ربما كان ذلك هدف المرأة الأميركية في البداية، علاقة عابرة تتخلص بواسطتها من ضجر زواجها. الا انها سقطت في النهاية ضحية عواطفها واظهرت الصورة تعلقها العميق بميندوزا مما يدل على حبها له.

لكنني عرفت، عرفت دائماً ما الذي سيحدث. عرفت أثناء الرحيل ان له القدرة على تحطيم قلبي. فكرت سوزان . وحتى الآن من المستحيل الهرب منه بدون ان يلحقها الاذى، إلا انها ستبذل جهدها ألاّ تسقط في حبائله اكثر، وألاّ تستسلم

له كلية، وتساءلت فيا اذا كانت ذكرى حبيبته الشقراء قد خلصتها منه في الليلة السابقة. ربما آلمه ضميره أخيراً، مذكراً اياه بمشاهد ودموع الالم لم يرغب بتكرارها.

ربما ستكون المحظوظة الوحيدة التي سيتركها بدون ان يمس احترامها لنفسها، رغم سيطرته عليها عاطفيا. الا ان الفكرة لم تمنحها ما رغبت فيه من هدوء النفس او حتى الراحة.

كانت تركض بسرعة كبيرة في قنال اخضر لا نهاية له. تبعتها اصوات وقع حوافر حصان لم تجرؤ على الاستدارة لترى اذا كان هناك على الحصان راكب. واملت ان تصل الى اقرب مكان تتحرر فيه من الخوف.

ولكن منحنى القنال لم يقدها الى الحرية بل الى مكان مسدود ومنفذ صغير مظلم، واذ تقدمت نحو المنفذ لاحظت انها بدأت بالاتساع حتى تحولت الى مدخل كهف وقف فيه مارك .

نادته بالحاح طالبة منه انقاذها. إلا انه كان يحدق في شيء حمله في يده، شيء التمع ببريق اخضر ملتهب ولم يبد عليه انه سمعها، صرخت باسمه ثانية إلا أنّ حوافر الحصان اقتربت منها ورأت ذراعي شخص تمتدان للامساك بها، بدأت المقاومة، غير ان الذراعين لم تكونا قاسيتين وسمعت صوتا لطيفا يخاطبها برقة:

- استيقظي، انه حلم، مجرد حلم.

فتحت عينيها وبقيت ساكنة للحظات، دانخة وخائفة، غير قادرة على التمييز بين الكابوس والحقيقة. إلا أنها استطاعت ادراك ما حدث، إنها في غرفتها في بيت ماريا ورامون وميندوزا جالس الى جوارها وقد ضمها بين ذراعيه، وجهها يضغط على صدره بينا ربتت الاخرى على شعرها وهو يهدئها بلطفه.

«آه، يا ربي، كنت احلم.»

قالت سوزان.

«كما قلت لك.»

قال بجفاف.

كانت الغرفة مظلمة فلم تستطع تمييز ملامحه. وواصل حديثه:

«ايقظتك لأنني خشيت ان تخيفي الاطفال اذا ما سمعوك.»

«هل احدثت ضجة.»

سألت سوزان

فاجاب ميندوزا:

«كنت تنادين مارك .»

«نعم.»

واخفت وجهها بين يديها للحظة. واضافت:

«اتذكر الحلم الان، كان في خطر مخيف، يجب ان اذهب الى مكانه، اعرف انه بحاجة الي.»

تعلق ميندوزا قائلاً:

«اي خطر يمكن ان يتعرض له جيولوجي بريء في حلة تنقيب بسيطة ؟ او ربما كنت تخفين عني شيئاً. ربما يتعلق هذا الشيء بطبيعة النماذج التي يأمل في ان يجمعها!»

تذكرت سوزان حذرها حين اخبرته قصة مارك وكيف تجنبت اخباره الحقيقة كما تذكرت شيئاً آخر وهو انها ما زالت في الفراش لان ميندوزا لم يعد اثناء العشاء او بعده. كما كان من الواضح ان ماريا لم تتوقع عودتهما.

كانت غرفة النوم حارة حين دخلتها، لذلك خلعت ملابسها ونامت تحت البطانية سحبت الغطاء بسرعة آملة انه لم يلحظ حالتها في الظلام.

«لا صحة لما تقول، كل ما في الامر هو انني اشعر بتوتر اعصابي بعد ان تركتني لوحدي طوال اليوم، بدون ان اعمل اي شيء.»

فقال ميندوزا:

«لم يكن في استطاعتي اخذك معي وتوجب عليّ الذهاب بسرعة لاداء بعض الاعمال الضرورية.»

فسألت سوزان:

«عمل رجال؟»

«نعم، كنت نائمة بسلام الى حد انني لم ارغب بايقاظك. آمل أنك لم تشعري

بالضجر.»

«اوه، كلا. كان اليوم مسلياً.»

ثم اضافت بوحشية:

«أمل انك ستتفضل الآن بتوضيح الامور لي. احب ان اذكرك بانني ادفع لك ثمن وقتك في حال نسيانك ذلك.»

«انت محقة تماماً، لا ارغب في توضيح ما فعلته اليوم. اما بصدد الدفع، فاحب أن اذكرك بانك لم تدفعي شيئاً بعد. انني ارغب في أخذ جزء من اتعابي الآن.»

«اتركني اتركني لوحدي.»

«لا تكوني حمقاء، ما الذي تحاولين اثباته ؟ انك تريدينني بقدر ما اريدك، لم لا تعترفين بالحقيقة؟ او ربما تخشين أن اؤذيك؟ اقسم لك بانني لن اؤذيك، حين يرغب المرء بازدهار وردة في حديقة فان عليه اولاً ان يرعى البرعم. سأرعاك بكل وجودي، كيف أستطيع ان اكون قاسياً معك!»

ثم اضاف:

«اخبريني انك ملك لي، قولي ذلك.»

«لكنني لست ملكا لك، ولا استطيع ذلك، لانني مخطوبة لشخص أخر.»

تشنج جسده فجأة وابعد يديه عنها، وقال:

«من الافضل لك أن توضحي ما قلت.»

«كذبت عليك حين اخبرتك أن مارك اخي، انه ليس اخي بل حبيبي وخطيبي وسنتزوج قريباً.»

وأضافت بعد قليل:

«كنا سنتزوج في وقت أبكر، إلا انه جاء الى هنا، ثم مرض جدي ورغب أن يرانا متزوجين قبل ان، قبل ان...»

احست سوزان ان لكلماتها صدى غريباً، كادت ان ترفع يدها لحماية نفسها من اكاذيبها، ابتعد عنها ميندوزا وسمعته يشعل المصباح الموضوع على المنضدة. نظر اليها ولم تكن في وجهه اية رغبة او عاطفة بل فراغ.

فسأل:

«لم كذبت علي.»

«ظننت أنني إذا اخبرتك الحقيقة، فانك لن تقبل استخدامي لك كدليل، عرفت انك استهويتني وقررت استخدام ذلك للوصول الى مارك في اسرع وقت.»

ساد الصمت بينهما مرة اخرى، ثم قال:

«فهمت.»

ارادت ان تقول له : كلا، لم تفهم، انك لا تفهم اطلاقاً، الا انها لم تفتح فمها ولم تلفظ الكلمات الاخيرة. ولم تستطع التحرك في فراشها لتحمي نفسها من نظرات احتقاره، ثم قال:

«هناك اسم يطلق على النساء امثالك سنيوريتا. الا أنني لا أود أن انطقه.»

خلال دموعها رأته يبتعد عنها، اطفأ المصباح ثم سمعته يقول:

«اتمنى لك مستقبلاً سعيداً مع خطيبك.»

٨ ـ صمت الليلة الأخيرة

وصلا ديابلو مساء اليوم التالي، نظرت سوزان حولها ورافقها احساس باللاواقعية فلم يكن المكان شبيهاً لما توقعته، خاصة وانها توقعت منطقة مناجم مماثلة لما رأتها في أفلام هوليوود ، بفنادقها الصغيرة ومطاعمها. غير أن ديابلو كانت منطقة صخرية يتوسطها طريق ترابي ويسودها الهدوء الى حد دعا سوزان للتساؤل عن سبب تمنع ميندوزا وكارلوس من قبله عن مرافقتها.

وتذكرت كيف امتلأت عينا ماريا بالدموع، صبيحة اليوم حين ودعتها ثم تمنت لها سلامة الوصول. واشعرت المبادرة سوزان بالمودة والدفء، إلاّ أن تذكرها الآن بعث في جسدها قشعريرة خوف غريب وكأنها اشارة تحذير.

نظرت باتجاه ميندوزا فرآته لدهشتها، واقفاً الى جانب حصانه، ثم سار وانحنى عند حافة الطريق ناظرا الى اسفل، بعد وهلة اخرج من جيب سرجه منظاراً واستخدمه لتفحص الموقع اسفلهم فترة اطول.

ارادت سوزان سؤاله عن سبب اتخاذه كل الاحتياطات ما دام المكان منعزلاً، إلا انها امتنعت عن ذلك شاعرة أن من الافضل تبادل الهمسات.

كان المكان هادئاً الى حد مثير للشكوك والمخاوف... هل بدأت الاحساس بالقلق لان المكان هادىء أكثر من اللازم ؟ في طريقهم الى ديابلو ، رافقتهم اصوات الطيور والحشرات المختلفة، ولكن هذا المكان خال من كل صوت ما عدا الصمت، الصمت الضاغط على صدرها.

عضت شفتيها متهمة نفسها بالتوهم، ثم أخرجت منديلاً من جيبها ومسحت حبات العرق المتساقط من جبينها، كان هناك ماء جار في الوادي واستطاعت رؤية مساره بين الاشجار كما رأت المنبع قرب صخرة كبيرة تظلل انبعاث الماء الهادىء.

منطقة يسودها الهدوء، هزت سوزان رأسها لتطرد عنها مخاوفها المتزايدة، وبدت الظلال مغرية وارادت ان تخلع جزمتها وتضع أصابع قدميها في الماء ولتدع يديها مغمورة فيه فترة ما.

القت نظرة جانبية على ميندوزا ، ما الذي ينتظرانه ؟ وارادت سؤاله إلاّ أن الكلمات جمدت في حلقها، فمنذ الليلة السابقة وملاحظته الاخيرة المؤلمة لها، لم ينطق الا بما هو ضروري، ارادت اقناع نفسها ان ما يجري لصالحها، ثم ألم يكن ذلك هدفها وما حاربت من اجلة طوال الرحلة ؟ وكانت إجابتها بالايجاب ذات وقع كاذب على اذنيها.

نهض واقفاً وتقدم نحوها، بدا وجهه قاسياً ومتجهماً.

«ابقي هنا، سأذهب لاستكشاف المنطقة»

قال ميندوزا.

«ولكن لما لا ارافقك ؟ الجو لا يزال حارا هنا بينما الظل... افضل...»

«لا اهتم بما تفضلينه، ستطيعين وتبقين هنا والا سأجعلك تأسفين.»

«ولكن كم سيطول بقاؤك هناك؟»

وسمعت صوتها مرتجفاً رغماً عنها.

«المدة اللازمة للكشف.»

وكان تعبيره عدائياً وبدا على وشك ان يفقد صبره فقررت ألاّ تضغط عليه اكثر، وراقبته مبتعداً على صهوة جواده حتى اختفائه بين الاشجار. وارادت أن

تصرخ منادية اياه مطالبة منه ألا يتركها لوحدها، الا انها علمت ان سلوكها ذلك سيجعلها تبدو كالحمقاء.

حين اختفى عن ناظريها تحركت نحو حصانها وجذبته الى الظل، ثم عثرت على مكان مريح تحت شجرة ممتدة الاغصان فجلست ساندة ظهرها على جذع الشجرة ومستخدمة كفها كمروحة للحصول على بعض النسيم.

مهما كانت تعاستها الشخصية، عليها تركها في المكان الثاني بعد المشكلة الاكثر الحاحاً. من الواضح ان مارك لم يكن هناك، بل ربما لم ينجح أبداً في الوصول الى هذه البقعة الموحشة، بقعة ما كانت ستصلها لولا مهارة ميندوزا، وبدا كأنه يعرف كل طريق في البرية كما يعرف خطوط يده.

تنهدت واتكأت على ركبتها وبدا وكأن الرحلة بأكملها مجرد عبث، اذ لا زالت غير قادرة على اكتشاف مكان اخيها، بل في الحقيقة، كل ما عثرت عليه منذ مجيئها الى كولومبيا كان نفسها.

وهو اكتشاف تركها تعبة ومتعبة.

اغلقت عينيها محاولة تجاهل الفكرة الاخيرة، عليها ان تخطط وتقرر خطوتها التالية للعثور على مارك. افترضت ان الخطوة المعقولة ستكون العودة الى بوغوتا وسؤال عائلة أرفاليز اذا كانوا سمعوا شيئاً عنه. ستتصل بالدكتور كينغستون ايضاً، في حالة عودة مارك الى بريطانيا.

ذلك ما يتوجب عليها التركيز عليه ـ العثور على مارك، خاصة بعدما أظهر ميندوزا بوضوح أن عاطفته تحولت الى احتقار واشمئزاز.

حين فتحت عينيها ثانية، كان المكان مظلماً تقريباً، واحست بالالام تسري في جسدها لوضعها غير المريح. كانت شبه نائمة. خاطبت نفسها، ولكن كم استغرق الامر؟ واين ميندوزا؟ وتنصتت محاولة سماع خطواته العائدة إلا أن الصمت بقي كما كان. ارتجفت قليلاً اذ ان حرارة النهار الشديدة تحولت إلى برودة قارصة، نظرت الى ساعتها ولاحظت لرعبها توقف الساعة. لا بد انها نسيت تعبئتها في الليلة الماضية.

قد أمرها ميندوزا بانتظاره، وما هي الفترة المطلوب منها انتظاره فيها؟

ليس في نيته بالتأكيد تركها تنتظره طوال الليل على حافة الهاوية، وفكرت لا بد ان عمال مناجم ديابلو شيدوا أماكن ملائمة لبقائهم. واذا ما بقيت فترة أطول لوحدها بدون حسم أمرها، فقد يصبح المكان مظلماً الى حد لا تستطيع فيه التحرك.

تناولت رزمة الطعام وقنينة الماء وبدأت النزول بهدوء وحذر باتجاه سطح الماء المتألق.

حين وصلت القعر كانت متعبة حيث كان النزول اكثر صعوبة مما توقعت وما كانت لتقوم بذلك اثناء النهار دون مساعدة. توقفت ساكنة للحظة محاولة استعادة ثبات انفاسها ثم بدأت سيرها على طول المنحدر، معتبرة اياه كدليل لها.

وفكرت بانه لو كانت المنطقة مأهولة لسمعها أحدهم بما احدثته من ضجة اثناء نزولها وتعثرها، وشعرت بخوف شديد حين فكرت بانها ملاحقة من قبل اشخاص لا تراهم، الا انها طمأنت نفسها بأن ما تفكر به هو مجرد اوهام، وتخيلت بانها كانت ستفضل المنطقة لو صح ما تخيلته عنها وفق الاسلوب السينمائي الغربي. وكانت مستغرقة في افكارها وتحاول الحفاظ على توازنها الى حد لم تلاحظ فيه الجدار الابيض المواجه لها. توقفت ساكنة وحدقت فيه، ماذا جرى؟ لم يكن جدارا عاليا وفي جانب منه رأت بوابة ارتفع على جانبيها شكلان هرميان صغيران... برج يعلوه ناقوس، في هذه البرية؟ لاستدعاء من ولماذا؟

كانت البوابة مكسورة ومتحركة من مكانها وخشبها متعفن، دارت حولها فوجدت نفسها فيما كان ذات مرة باحة منسقة، كانت الارضية مرصوفة ثمت الاعشاب البرية بين الحافات المكسورة لها، مبرهنة على قوة الحياة البرية، وامتد بناء كبير ابيض حول زوايا الساحة الثلاث، تاركا لحائط البوابة الجانب الرابع. كان هناك شيء مألوف في اسلوب البناء، شكل البرج والقوس المظلل للممشى الامامي وتذكرت سوزان: آه بالطبع انه دير قديم، متخيلة البناء برغم تهدم جدرانه وسقوط نصف غرفه واخيراً وحشة ما احاط به. ورغبت بالتراجع وترك المكان الحزين للاشباح، اشباح الكهنة والرهبان والراهبات، الا انها أجبرت نفسها على البقاء لانها احتاجت مكانا تقضي فيه الليلة ولم تعتقد انها ستجد مكانا

افضل.

سارت الى الامام وكان لوقع خطواتها صدى مزعجا في الليل. رأت فجأة امامها مخلوقاً ليلياً اختفى بسرعة. توقفت وكان في امكانها سماع دقات قلبها بوضوح.

شكرا وليلة سعيدة قالت بصوت عال. حاولت بذلك رفع معنوياتها وخرق الصمت اللانهائي المحيط بالمكان كله. صحيح انها كانت تحب الهدوء، الا ان هدوء المكان كان غريباً، كما لو ان كل شيء توقف عن التنفس بانتظار كارثة ما.
وصرخت مرة اخرى.

«مرحباً ـ هل هناك أحد ؟» ومثل صدى تخيلت سوزان سماع أنين شخص قريب منها.

« ميندوزا ؟ هل انت هنا ؟» ترى هل سقط عن جواده وأذى نفسه بينما كانت باقية في انتظاره، صحيح انه كان خبيرا بركوب الخيل، ولكن ربما تعرض لحادث مفاجيء.»

وبدأت السير باتجاه الصوت ومتقدمة نحو ظلال الدير وحدقت في أعمدة البناء القديم وتساءلت اذا كان السير تحتها أمينا. لاحظت اثناء سيرها وجود العديد من الغرف الصغيرة ذات الابواب المحاطة بالقضبان فخمنت بانها لا بد وأنها كانت غرفا خاصة لصلاة الرهبان والراهبات. وقفت على حافة اصابعها ونظرت خلال نافذة صغيرة، فخفقت أمام وجهها أجنحة طيور صغيرة او وطاويط أفزعها وجودها. فخطت إلى الوراء بسرعة. حينئذ سمعت الأنين مرة اخرى وايقنت بانه صادر من الغرفة المجاورة. تحركت باتجاهها ونظرت خلال الفتحة. بدت الغرفة الصغيرة خالية إلاّ من سرير قرب الجدار واستطاعت رؤية شيء يتحرك. ايقنت انه انسان مغطى ببطانية. دفعت الباب فانفتح بسهولة

«ماذا جرى ؟ هل استطيع مساعدتك ؟» واذ تحركت باتجاه الجسد دافعاً الغطاء قليلاً فظهر رأس مغطى بشعر أشقر. فادركت انه ليس ميندوزا ثم كادت ان تتوقف عن التنفس حين رأت الوجه المتعب المحدق في اتجاهها وازداد صوته ارتفاعاً رغم وجود الخرقة القذرة المحشوة في فمه.

كان أخوها مارك.

تنهدت وسقطت الى جانب السرير ساحبة الخرقة لتحرره. سأل مارك:

« سوزان ! ماذا تفعلين هنا ؟ كيف عرفت مكاني؟»

«انها قصة طويلة.»

قالت برفق ناظرة الى وجهه النحيف والبقع الحمراء المشيرة الى اصابته بالحمى.

«لكن ماذا حدث لك؟»

تحرك مارك بقلق.

«لا وقت للحديث. عليك ترك المكان حالاً لطلب النجدة.»

«لست ذاهبة الى أي مكان بدونك. سأساعدك على النهوض.»

رمى مارك البطانية جانباً.

«لا أستطيع النهوض.» قال مارك.

نظرت اليه فرأت ان ساقه اليمنى مقيدة بالسرير والقيد بقفل كبير.

«من فعل هذا؟»

«لا ادري. وصلت مجموعة من الرجال منذ اسبوعين، اذ كنت انقب في منجم قريب، ولم اعثر على أي شيء، وكان المنجم خطرا فقررت التخلي عن الفكرة والعودة الى بوغوتا، حتى جاءوا وحين عددتهم ووجدتهم هنا لم أهتم اولاً حيث ظننت ان المكان مسموح للجميع وكنت مختبئاً خارج المبنى. وحين بدأوا سؤالي عما كنت افعله هنا، لم اجد داعياً للاجابة، رغم معرفتي ان ما قمت به كان عملاً غير قانوني، حيث ان الحكومة الكولومبية لا تحبذ رؤية الناس ينقبون عن الزمرد لانفسهم. الا ان الرجال ظنوا انني اعرف شيئاً لا ارغب بالايضاح عنه. ثم فتشوا متاعي وحين اعترضت ضربني احدهم ففقدت الوعي واستيقظت لأرى نفسي هنا، وفي هذه الحالة.

«آه يا الهي.»

صرخت سوزان

«قالوا في البداية انهم سيمنعون عني الطعام حتى اخبرهم بما يريدون، الا انهم

تأكدوا بعد عدة ايام، انني لا اعرف شيئاً. اعتقد انهم نقبوا في المناجم القديمة بانفسهم ولاحظوا خلوها من الزمرد. ثم جاء قائدهم لرؤيتي، فأخبرني انه سيدعني اغادر المكان. فارتحت الى حد اوشكت فيه على البكاء. الا انه قال يجب علي ان اكتب رسالة ما. فظننت انها تعهد مني بعدم اقامة دعوى ضدهم، اذا ما وصلت سالماً الى الاماكن المأهولة. الا انها لم تكن كذلك، بل كانت رسالة موجهة الى جدي طالبا فيها فدية لاطلاق سراحي.»

«فدية!»

ونظرت اليه بذعر، وقالت:

« مارك لهذا السبب انا هنا جدنا مريض جداً واصيب بنوبة قلبية خطرة. لهذا طلب مني البحث عنك.»

«ولكن كيف عرف انني هنا؟»

ومسح مارك عينيه بيديه القذرتين.

«رآك صديق له تتناول العشاء مع عائلة أرفاليز في بوغوتا.»

«آه، نعم.»

وابتسم لاول مرة ابتسامته المعتادة.

«كان ذلك للاحتفال بعيد ميلاد ابزابيل . كم يبدو الحدث قديماً الآن يا سوزان. لم اعلم من قبل ان اشياء كهذه تحدث حقيقة.»

وامسك بيدها باحكام.

وارتجفت سوزان خوفا متذكرة الصور في صندوق ماريا ـ الاب الفخور، الصبي المبتسم ذو العينين السوداوين...

«انك لا تعرف غير نصف الحقيقة، هل كتبت الرسالة؟»

هز رأسه نفياً.

«الحمد لله، كان من الممكن ان تقتل جدنا!»

«اذا لم اكتب الرسالة فسنقتل سوية، وكان صوته خالياً من العواطف حيث منحوني فرصة التفكير حتى الغد لانفذ ما طلبوه مني. لهذا يجب ان تتركي المكان بسرعة لاستدعاء النجدة. حيث اظن انه حتى في هذه المنطقة النائية لا بد من

وجود من يشرف على تطبيق القانون والنظام.»

وارتفع صوته بشكل لا ارادي.

«سنكون على ما يرام. هناك الرجل المرافق لي وسيعرف كيف يتصرف.»

«اين هو؟»

ونظر وراءها.

«حسنا، لست متأكدة. لكن ...»

«هل انت متأكدة انه ليس واحداً منهم؟»

فدفعها اليأس في صوته الى الارتجاف، وكان الجواب البسيط هو لانني احبه، ولا اظن انني قادرة على حب شخص يتصرف بطريقة لا انسانية الا انها لم تحاول نطق الكلمات بل انحنت وقبلت جبينه المحموم.

«ساذهب الآن. حاول خداعهم، عدهم باي شيء».

توقفت لان وجه مارك سادهُ الشحوب.

«عصفور اخر في شبكتي. والعصفور جميل هذه المرة.»

قال الرجل الواقف خلفها. ونطق الجملة الأخيرة بطريقة دفعتها للارتعاش خوفاً. فواصلت مسك يد مارك والتحديق في القادم الجديد. لم تستطع تخمين عمره خاصة لشعره الطويل. وشاربه الكث.

وضع الرجل المصباح على الكرسي المكسور قبل ان يخطو باتجاه سوزان ثم أمسك بذقنها بين يديه متفحصاً ملامحها من جميع الزوايا.

«عصفور جميل جداً. ولكن، كيف جئت هنا ؟ وماذا تريدين؟»

«جئت لوحدي باحثة عن أخي.»

«حسناً جداً. انني معجب بعفوياتك. ربما كان يجب ان تكوني الرجل بدلاً من الشخص المجاور. مع ذلك يجب ألا تكذبي. من جاء معك؟»

وشدت اصابعه على ذقنها الى حد ظنت فيه انه سيحطم فكها. أرادت البكاء لشدة الالم فضغطت باسنانها على شفتيها مخافة الصراخ. حينئذ سمعت صوتاً آخر يقول:

الى هنا حالاً.»

لم يسمع احدهم صوتاً وشبكت سوزان يديها الى حد ألمها، واصلت في هدوء، المرة بعد الاخرى طالبة من الله ألاّ يدعه يلبي النداء.

«فاتاس!»

صرخ رودريغو مرة اخرى ولاحظت في الظلمة توتر عضلات وجهه مما دلّ على غضبه الشديد واضاف:

«هذه فرصتك الاخيرة، وفرصة حبيبتك الاخيرة ايضاً. سأعدّ حتى العشرة وسأسلمها لرجالي ليتسلوا بها.»

«لا تصرخ يا رودريغو.»

فجأة ظهر ميندوزا قرب حلقة ضوء النار وقبعته تغطي جبينه

«قد أكون نصف اعمى. شكراً لجهودك الطيبة، إلا أنني لست أصماً.»

«ميندوزا! كلا.»

همست سوزان بل ربما قالت الكلمات في قلبها اذ لم يلتفت أحد اليها، حتى انه لم ينظر اليها وهو يتقدم الى الامام.

«ها نحن نلتقي ثانية.»

وتنفس رودريغو بعمق متأملاً طول ميندوزا الفارع.

«لقاء طالما اشتقنا اليه.»

قال فاتاس بأدب. فبدأ رودريغو الضحك معلقاً:

«ولكن ليس في ظروف كهذه، اذا خطر لك غير ذلك. اليس كذلك؟»

«ها قد حصلت علي. وهذا ما اردت منذ زمن بعيد. لكن الرجل والمرأة لا علاقة لها بالموضوع وانت لا تريدهما.»

«كلا ؟ ربما ما تقول صحيح . قد اترك لهم حرية الذهاب ولكن مقابل سعر عال كما تعلم.»

«كارلوس يهوى الفتاة فهل تستطيع تقديم عرض افضل؟»

«ربما. ماذا تريد؟»

اجاب ميندوزا برزانة

«ماذا اطلب من سيد لينوس الشاب؟ طائرته الخاصة تنقلني حيثما شئت؟ أو أحد قطعان الماشية؟ او عشرة ملايين بيزوا؟»

بقي فاتاس ساكتاً.

«كلا. ساطلب شيئاً طلبته من قبل ومنذ وقت طويل. ربما ستكون اعقل من الشخص الآخر الذي رفض الاجابة. اعطني الخريطة. خارطة مكان شعلة ديابلو.»

سمعت سوزان مارك يبتلع ريقه لاثارة الموقف. وجمدت في مكانها حين استدار ميندوزا لينظر اليها. كانت نظرته اليها ساخرة ومريرة ثم انتقل بناظريه ليتفحص الشاب الواقف الى جوارها. وأدرك أن مارك اصغر منها عمراً وانه لا بد ان يكون قريباً لها للشبه الشديد بينهما. ثم استدار باتجاه رودريغو.

«لا وجود لأي خارطة. تم نقل سر ديابلو من جيل لآخر في عائلتي بدون خط شيء على ورقة وذلك ما جعله سراً مأموناً.»

«أي أمان؟ وكيف استفاد افراد عائلتك من الزمرد اذن؟»

«لم يستفد أي فرد من افراد عائلتي من منجم ديابلو، حيث ادركنا ومنذ قديم الزمان ان المكان خاص بالرموز القديمة. جدي الاعظم لم يرد تصديق الحكاية فمنح النقود لمجموعة مبشرين بنوا هذا الدير وحاولوا طرد الرموز القديمة خارج الوادي، وها أنت ترى بنفسك مدى نجاحهم.»

«قصص لتخويف الاطفال.»

دمدم رودريغو.

«لكني لست خائفاً وستريني غداً مكان منجم ديابلو . هذا هو السعر المطلوب لاطلاق سراح الانكليزية.»

«الفتاة واخوها سوية.»

وادركت سوزان مدى توتره حين نطق الكلمات الاخيرة.

«نعم، نعم ولكنني. وابتسم مواصلاً. لن ادعك تذهب. كان علي قتلك قبل سنوات، الا أنني قررت أن اكون رحيماً. كان ذلك خطأ لن اكرره لانك سببت لي

لم يكن هناك أي ضوء إلا أن تألقاً غريبا أنار الظلام. رمشت بعينيها، ثم أحست بيد ميندوزا تضغط على فمها ليمنعها من الصراخ. كانت الجمجمة الذهبية موضوعة على السطح الترابي منذ عدة قرون. وتألقت الزمردات التي ملأت تجويفي العينين بلهيب اخضر. كانت زمردات العينين مصقولة أما البقية فكانت في حالتها الطبيعية. مكومة في مكان واحد كرمز للتضحية والعطاء.

ووضع ميندوزا ذراعيه حولها رافعاً اياها مرة اخرى.

«اذهبي الى الاعلى، وبأقصى سرعة.»

ووجدت نفسها في نفق آخر حفر داخل الصخور، نفق لا يستطيع الانسان التحرك فيه إلا زحفاً على البطن ورغم ضيق المكان بسرعتها في الزحف أحست أن الهواء مختلف. وانها قريبة من منفذ ما. وجذبتها نداوة الهواء فكادت ان تفقد الوعي لشدة فرحها وزحفت اسرع فأسرع، ثم مدت يدها بشكل لا إرادي الى الاعلى عند نهاية النفق.

احست بشخص يمسك رسغيها ثم يجذبها الى الخارج ولم تستطع فتح عينيها لقوة اشعة الشمس ولتعودها على النظر في الظلام.

نظرت الى الوجه البرونزي المنحني عليها، وكذلك الى زيه النظامي. كان وجهه وسيماً ذو شارب صغير اسود.

«اسف لخشونتي سنيوريتا.»

وساعدها على الوقوف على قدميها.

«انا الكابتن لوبيز ربما ذكر ميندوزا اسمي امامك.»

«كلا.»

كانت يداها ترتجفان قليلاً وتكسرت اظافرها. لا بد أن منظرها كان مخيفاً. مغطاة بالتراب وجزء من قميصها وبنطالها ممزق. وبدا كأن الكابتن ادرك سر ترددها فاشار الى احد الجنود بمناولتها سترة الزي النظامي. فارتدتها على عجل. وقدم لها جندي آخر سيكارة فشكرته ثم انتبهت الى أن المكان كله محاط بالجنود.

«ماذا حدث؟»

سألت سوزان كابتن لوبيز إلا أنه اشار طالباً منها الصمت. وساد

الصمت حولها وتنصت الجميع لشيء، لم تعرف ماهيته.

لم تشك اطلاقا أن ما سمعته كان صوت اطلاقة مسدس تبع ذلك ضجة واصوات مختلطة.

سمعت بعض الشتائم اطلقها كابتن لوبيز ثم تحرك بسرعة مبتعداً عنها وزاد الامر سوءا الانهيار الذي تلا ذلك واستمر وكأن اطنان الصخور تنهار بلا توقف تحت قدميها فسقطت على الارض، منادية باسمه وكانت مستعدة لحفر الارض بيديها العاريتين للوصول الى الرجل الذي احبته. ودفع ازدياد الانهيار القبر الى علو مرتفع فلم يدع لها فرصة التوقف عن البكاء لحظة واحدة.

«ميندوزا.»

وكررت اسمه عدة مرات برتابة مخيفة ويأس صور لها جسمه مكوما تحت الصخور في ظلمة النفق.

وضغطت على شفتيها بقبضة يدها. كالاطفال. محاولة ايقاف نفسها عن الصراخ والبكاء، ومحاولة التحكم بمشاعر اليأس المسيطرة عليها.

لمستها يد شخص مجاور لها فانكمش جسدها ورفضت المساعدة.

«دعني. اتركني لوحدي. اريد الموت.»

«لكن الحياة لا تزال جميلة. كما قلت لك الليلة الماضية.»

حملقت سوزان في وجه الرجل غير مصدقة ما سمعته. كان وسخاً مثلها وملابسه ممزقة. كان هناك جرح عميق في جبينه وآخر في كتفه

«ميندوزا.»

ورمت نفسها بين ذراعيه.

«ماذا حدث ؟ كيف نجوت؟»

«لفترة قصيرة ظننت انني لن انجو إلا انني سمعت صوتك منادياً إياي ايتها الحبيبة.»

«ظننت انك قتلت. حين سمعت صوت الطلقة ثم الانهيار، لم اتصور كيف يمكن لأي انسان النجاة من هناك... صمتت فجأة وحدقت في وجهه.

ـ مارك ... آه. كيف نسيت ؟ اين هو ! هل جاء معك؟»

نفسه من أجلي.»

«لا تكن سخيفاً. انت تعرف جيداً أنني اختلقت الحكاية وان مارك اخي.»

«اعرف جيداً ما كان سيحدث بيننا حين قررت مفاجأتي بكذبتك الصغيرة، ثم لا أدري لم تحاولين اقناعي، خاصة وأنك بددت وقتك كله في محاربتي، منذ لقائنا الاول. ما الذي دفعك الى تغيير رأيك ؟ هل هو رودريغو ؟ ام لانه ذكر أنني مليونير؟ هل تأملين أن أذكرك في وصيتي؟»

«انك قاس.»

دمدمت سوزان بصوت مرتجف.

«لست في حالة تسمح لي بالعطف، يبدو انك على استعداد للتنازل بسهولة، وعدتك الليلة الماضية أن أكون رفيقاً معك أما الليلة فلا اضمن شيئاً. والان اقرعي الباب واخبري الحرس انك غيرت رأيك.»

«لن افعل ذلك.»

وسحبت سوزان صندوقاً خشبيا فارغا من زاوية الغرفة وجلست عليه.

«لا تطلب مني الذهاب رجاء، لا اريد أن أقضي الليلة لوحدي.»

وانتظرت جوابه بيأس إلاّ انه لم يجبها فواصلت الحديث بصوت منخفض.

«لم لا تريد بقائي.»

اجاب بغضب بدا واضحاً في وجهه الاسمر.

«انك حمقاء صغيرة. ألا تفهمين شيئاً ؟ اريدك منذ رأيتك لاول مرة في غرفة القمار، الم اوضح لك مشاعري. بكل كلمة، نظرة ولمسة ؟»

«اذن لماذا؟»

ولم تستطع اتمام الجملة بل اشارت بيديها.

«هل يجب ان اوضح كل شيء؟»

وجلس على حافة السرير ضاغطا على الفراش الخفيف بكل قوته:

«لانني لا اريد اعادتك الى بريطانيا وفي رأسك ذكريات مؤسفة ومؤلمة.»

سألت سوزان:

«هل تظن انني ساستطيع نسيانك بسهولة؟»

«كل شيء ينسى بمرور الوقت. هل فهمت ما اقول؟»

«نعم، ولكن هل تظن أن رغباتك هي كل ما يجب أخذه بالاعتبار ؟ انك تفترض محافظة رودريغو على وعده باطلاق سراحي مع مارك يوم غد، ولكن هل تضمن ذلك؟»

«هذا صحيح، ولكنني فكرت بأنك لن تهملي التفكير في ذلك الجانب، والآن ما الذي تقترحينه ؟»

«قد لا يكون واقعياً، ولكن ما هو الشيء الواقعي في حكايتنا كلها ؟ انها تبدو مثل كابوس يعرف الحالم بانه حلم إلا انه لا يستطيع التخلص منه.»

«مثل كابوس الليلة الماضية؟»

أجاب ميندوزا.

«نعم، وخلصتني منه. ايقظني مرة اخرى رجاء.»

« سوزان انك تحاولين اغرائي، هل تعلمين الى أي حد؟»

«ليس بما فيه الكفاية.»

ثم وقفت دافعة الصندوق الى الخلف. فقال لها ميندوزا فجأة :

«يكفيني ان انظر اليك، اشم رائحتك لارغب فيك الى الابد.»

وخشن صوته وتكسر.

«نعم انه الفجر.»

قال ميندوزا بهدوء، ولاحظت انه اضاء المصباح واستخدم الصندوق كمنضدة كتابة.

«ماذا تكتب؟»

«رسالة لأمي، واغلق المظروف.»

«ولكن كيف حصلت على القلم والورق؟»

«اعتقد انها جزء من متاع اخيك، جلبها لي احد رجال رودريغو في الليلة الماضية.»

ثم تحرك من مكانه وعاد ليستلقي في السرير.

«لدي شيء أود منحك اياه ايتها الحبيبة.»

ارادت الابتسام إلا انها انتهت بتكشيرة مرتسمة على وجهها.

«لا بد انك تمزح.»

«ربما ولنحاول جهدنا الاستمتاع بالنكتة، لكن دعينا نتحدث أولاً. لا أحد يعلم ما الذي سيجلبه النهار لنا، لكن دعينا نفترض أن رودريغو سيفي بوعده ويطلق سراحكما انت ومارك. ستجدين الخيل مربوطة في المكان الذي تركتك فيه يوم امس. ابتعدا اكبر مسافة ممكنة وباسرع وقت وما أن تصلا مركزاً للشرطة، توقفا وبلّغا عما حدث، قولي إنني اطلب منهم مرافقتك الى بيتي قرب فيلاسنكو، هل تفهمين ؟»

«نعم لكن لم الى بيتك ميندوزا؟»

«لانني ارجو منك أخذ رسالتي الى امي.»

ثم تناول الميدالية من حول عنقه ووضعها حول عنقها:

«هناك شيء آخر أود ذكره، ساحاول اقناع رودريغو أن يدعكما تغادران المكان قبل أن أريه المنجم. أما إذا رفض فستتعرضين للخطر وعليك حينئذ اطاعة اوامري حرفياً، اذا قلت اركضي فاركضي فوراً. اذا قلت انطرحي فاسقطي على الارض فوراً، وكذلك مارك.»

« ميندوزا...»

وبدأت البكاء.

«لا داعي للكلام اكثر»

ثم انحنى وعانقها وأضاف:

«تذكري ما قلته ولا تبكي يا حبيبتي، لأننا لم نخسر بعد. الحياة لا تزال حلوة وستكون أحلى قريباً.»

كانت سوزان هادئة وبكامل ملابسها حين فتحت الباب. فيما أخفت رسالة ميندوزا في جزمتها وأحست بلمس الميدالية بارداً وغريباً في صدرها حين احكمت تزرير القميص لاخفائها.

سارت وحدها بكل كبرياء وبرودة فلاحظت بزوغ اشعة الشمس القوية، وكان أول شخص لاحظته هو مارك واقفاً لوحده قرب بقايا النار الخامدة

حاملاً بيده كوباً من القهوة. سارت باتجاهه وحين اقتربت منه امسكت بذراعه قائلة:

«هل قيدوك في الليلة الماضية؟»

«كلا.»

وكان صوته غريباً، وكأنه صادر من شخص لا يرغب بالحديث اليها وغطت وجهه ملامح الغضب والخجل. فسألته بتخفظ

«ما الذي تشربه؟ هل هي قهوة؟»

«انها قهوة قذرة.»

واعطاها الكوب لتشرب منه بعض ما تبقى فيه.

«الم يدعوك المحكوم عليه بمشاركته الفطاره الاخير؟»

«نعم تقضيت الليلة الماضية في غرفة ميندوزا ، هل الامر مهم؟»

«مهم؟ ألا يكفي سوء ما أنا فيه الان لتأتي أنت وتزيدي الطين بلة، بتخليك عن كل شيء اخلاقي من أجل رجل ينتمي الى احدى العصابات السكولوجية؟»

وابيضّ وجهها وشعرت وكأنه صفعها بشدة على وجهها.

«كيف تجرؤ على قول ذلك؟»

سألت سوزان.

«كيف تجرأت انت ؟ انت تعلمين ما الذي سيحدث لجدنا لو انه عرف بما حدث.»

«الطريقة الوحيدة التي سيعرف من خلالها هي انت. ثم تذكر لا يزال علينا العودة الى انكلترا أولاً.»

«كلا، لم أنس.»

اجاب مارك وهو يحني رأسه ناظراً الى التربة.

«عزيزي مارك يجب ألا نتعارك، خاصة في وقت عصيب كهذا.»

«اعرف ذلك، ولكن لو انك فقط سمعت ما كانوا يقولونه والنكات البذيئة، خاصة ذلك الفتى، المدعو كارلوس ، وباللغة الانجليزية كي افهم ما يقولونه.»

«انه امر مزعج، ولكن تذكر ان ميندوزا على وشك البوح بسر عائلته الذي مات والده من اجله، لينقذنا.»

«لم ينقذنا بعد.»

اجاب مارك بكآبة وخوف فغفرت له سوزان ما قال. كان صبياً مدللاً منذ البداية لانه كان الولد المنتظر، وساهمت هي بطريقتها الخاصة في الظهور بظهر العبد له واطاعة اوامره، اضافة الى تدليل الجد الآن، ها هو وحيد ومنعزل، بلا حماية يحاول توجيه الضربات لها بدلاً من المعتدين عليه.

«لكنه سيفعل.»

وارادت بلفظها تلك الكلمات ان تعيد الطمأنينة الى نفسه إلا انها ادركت مدى تفاؤلها حين تذكرت ان ميندوزا على وشك ان يفقد حياته فتلألأت الدموع في عينيها

«آه يا ربي.»

قال مارك ورمى بقية القهوة على الارض وسار مبتعداً عنها.

«هناك؟»

تساءل رودريغو بفارغ الصبر وغطى العرق جسمه بتأثير الحرارة الشديدة، ولاحظت سوزان الواقفة الى جانبه تحرك عضلات وجهه.

«هل تحاول خداعي؟ فتشنا هذا المكان من قبل، انه خال إلا من الحيات والوطاويط.»

«هل تشك في صدقي.»

قال ميندوزا متحدياً رودريغو.

«لقد عقدنا صفقة بيننا، وشعلة ديابلو موجودة في الكهف، مد يدك ايها القمئ وستحصل عليها.»

سخر متعمداً فاحست بدقات قلبها تتزايد وادركت من ارتجاف يد مارك المربوط معها بحبل قصير، خوفه وتردده.

رفعت سوزان يدها لتمسح حبات العرق المتساقطة من جبينها، منذ الصباح لم يسر كل شيء على ما يرام حيث اصر رودريغو على مرافقتها له ورفض اطلاق سراحها، حتى حصوله على شعلة ديابلو، كانا رهينة لديه ولن يطلق سراحها حتى يمسك الزمردة بيده، وتوقعت اعتراض ميندوزا الا انه

تقبل الوضع بهزة من كتفيه وسار متجهاً نحوها، حيث وقفت ويدها مربوطة بيد مارك.

«حان وقت الوداع اذن.»

قال جملته بصوت لم يدل عليه التأثير ثم بلا تردد انحنى وعانقها لفترة طويلة تاركا اياها مرتجفة وضعيفة.

«تذكري...»

لم ابتعد عنها.

«ايها النذل.»

دمدم مارك، إلاّ أنها ادركت أن كلمة ميندوزا الاخيرة لم تعن تذكره كمحب بل ان تتذكر اطاعة اوامره وتمنت لو تستطيع توضيح الامر لمارك إلا أن وجود رجال رودريغو حولها، حال بدون ذلك، فسارت الى جانب مارك خارج الدير متجهين الى الوادي.

وقبل ان ينفجر رودريغو معترضاً بصراخه المعتاد قال لها مارك:

«ما هي لعبته؟ لا شيء هنا حيث قمت بتمشيط هذه الانفاق بقعي شبراً شبراً.»

ولاول مرة بدا رودريغو محتاراً ولا يملك اي سيطرة على الموقف، وسمعت خلفها اصوات رجاله يتذمرون قلقين.

«ماذا حدث يا رودريغو ؟ هل تخيفك لعنة الزمردة؟»

«لا تحدثني عن الخوف، وحين سأتخلص منك سأعلمك معنى الخوف، وستزحف على ركبتيك طالباً الموت.»

ارتعشت سوزان خوفاً وتقلصت معدتها لقسوة الفكرة، إلاّ أن ميندوزا بقي هادئاً بل وبدا عليه التمتع بالمحادثة.

«والآن عليك تنفيذ الجزء الاخر من الصفقة، اطلق سراح الفتاة ومارك ، دعهما يذهبان.»

وأحست مرة اخرى، بتردد رودريغو ، ثم نظر اليها والى اخيها نظرة حيوانية تجلت فيها القسوة بينما وقف ميندوزا جانباً

«كلا، ليس الان، لا أستطيع الوثوق بك أيها السيد النبيل، عليها مرافقتنا داخل

النفق كرهينة مقابل سلوكك واخلاصك، حركة خادعة منك وسأطلق الرصاص على امرأتك.

«فك قيدها على الاقل، فالنفق ضيق جداً في بعض الاماكن الى حد لا يستطيع المرور فيه اكثر من شخص واحد ولن يستطيعا التحرك فيه مقيدين، ما لم ترغب في انتظارهما زاحفين على ركبتيهما. تردد رودريغو لحظة والشك لا يفارقه إلاّ أنه اضطر الى توجيه الامر لاحد رجاله فقام بفك الحبل فشعرت سوزان بالراحة والدم يجري بحرية في يدها. فركت يدها باصابع يدها الاخرى واذ كانت تفعل ذلك أحست بمندوزا ينظر اليها إلاّ انه ادار رأسه فوراً، لكنها رأت في نظراته السريعة تلك غضباً قاتلاً لا حد له.

نظرت الى مارك لترى إذا كان لاحظ شيئاً الاّ أنه كان مشغولاً بالامتعة الخاصة، وبدا يافعاً ووجهه شاحب فلمست يده مدركة بأن ميندوزا ورودريغو وصلا مدخل النفق، ووقف رجال رودريغو جانباً لمراقبة ما سيحدث.

«افعل ما سيقوله لنا حالاً. نفّذ أي شيء يقوله.»

«لست دمية بين يديه.»

همس بدوره غاضباً. لم تستطع مجادلته لانهما بدورهما سارا نحو المدخل، واحنت رأسها لتدخل شاعرة بملمس السقف على رأسها.

كان النفق بارداً ورطباً، رائحته خانقة، يشبه مدخل القبر. واشعرت سوزان متمنية لو انها لم تفكر بذلك.

«ان المكان خطر جداً.»

قال مارك وكأنه استطاع قراءة افكارها.

حركة واحدة خاطئة او حتى اطلاق صوت عال سيؤدي الى انهيار المكان كله على رؤوسنا. أمل ان يكون ذلك المتعجرف مدركاً لما يفعله.»

ولم يكد يكمل جملته الاخيرة حتى سقط بعض الاحجار الصغيرة عند قدميها. وتعثرت سوزان بشيء صلب، عرفت بأنه فأس رميت على عجل. لماذا ؟ ربما خوفاً. اجابت نفسها وازدادت الظلمة حلكة حولها كلما تقدما أكثر داخل النفق.

حمل رودريغو مصباحاً يدوياً قوياً وكذلك أحد الرجلين المرافقين لها. إلا أنهم لم يعثروا على الزمردة المشهورة في أي مكان، وأصبح التنفس عسيراً وتساءلت هل انه مجرد احساس بالخوف من ضيق المكان، ام انه انعدام الهواء النقي؟ ثم وضعت يدها على حنجرتها.

«اين الزمرد؟»

كشر رودريغو ناظراً الى ميندوزا بغضب وضوء مصباحه متسلط عليه.»

«الكلب لا يخلف غير الكلب، هل كذبت علي؟»

أجاب مندوزا بهدوء:

«اخفض صوتك. والاّ ستكون كلمتك الغاضبة التالية هي الاخيرة.»

أجاب رودريغو:

«لا وجود للهواء هنا.»

«لماذا تضيع اذن القليل الموجود، هل انت على استعداد لمواصلة السير؟»

«الى اين؟ ان النفق مسدود واعرف ذلك لانني نقبت كل شبر فيه.»

«كلا، ليس كل شبر فيه. انك مخلوق أرضي يا رودريغو. على الانسان أن يرفع رأسه إذا أراد مخاطبة السماء.»

فوجه رودريغو ضوء مصباحه الى سقف الكهف فرأوا فتحة ضيقة بين الصخور، لا تكفي لمرور طفل، فكيف برجل ضخم كرودريغو.

«هناك؟»

تساءل رودريغو متعجباً

«نعم هناك.»

أجاب ميندوزا ساخراً.

«تقدم انت اولاً ولتتبعك الفتاة.»

توقفت سوزان غير مصدقة لما رأته إلا ان ميندوزا رفع نفسه الى اعلى واختفى في الظلمة ثم دفعها رودريغو بمسدسه. رفعها مارك الى الاعلى بينما مد ميندوزا يده ليجذبها نحوه.

لم يكن هناك أي ضوء إلا أن تألقاً غريباً أنار الظلام. رمشت بعينيها، ثم أحست بيد ميندوزا تضغط على فمها ليمنعها من الصراخ. كانت الجمجمة الذهبية موضوعة على السطح الترابي منذ عدة قرون. وتألقت الزمردات التي ملأت تجويفي العينين بلهيب اخضر. كانت زمردات العينين مصقولة أما البقية فكانت في حالتها الطبيعية، مكومة في مكان واحد كرمز للتضحية والعطاء.

ووضع ميندوزا ذراعيه حولها رافعاً اياها مرة اخرى.

«اذهبي الى الاعلى، وبأقصى سرعة.»

ووجدت نفسها في نفق آخر حفر داخل الصخور، نفق لا يستطيع الانسان التحرك فيه إلا زحفاً على البطن ورغم ضيق المكان وسرعتها في الزحف أحست أن الهواء مختلف، وانها قريبة من منفذ ما. وجذبتها نقاوة الهواء، فكادت ان تفقد الوعي لشدة فرحها وزحفت اسرع واسرع، ثم مدت يدها بشكل لا إرادي الى الاعلى عند نهاية النفق.

احست بشخص يمسك رسغيها ثم يجذبها الى الخارج ولم تستطع فتح عينيها لقوة اشعة الشمس ولتعودها على النظر في الظلام.

نظرت الى الوجه البرونزي المنحني عليها، وكذلك الى زيه النظامي. كان وجهه وسيماً ذو شارب صغير اسود.

«اسف لخشونتي سنيوريتا.»

وساعدها على الوقوف على قدميها.

«انا الكابتن لوبيز ربما ذكر ميندوزا اسمي امامك.»

«كلا.»

كانت يداها تنزفان قليلاً وتكسرت اظافرها. لا بد أن منظرها كان مخيفاً، مغطاة بالتراب وجزء من قميصها وبنطالها ممزق. وبدا كأن الكابتن ادرك سر ترددها فاشار الى احد الجنود بمناولتها سترة الزي النظامي، فارتدتها على عجل. وقدم لها جندي آخر سيكارة فشكرته ثم انتبهت الى أن المكان كله محاط بالجنود.

«ماذا حدث؟»

سألت سوزان كابتن لوبيز إلا أنه اشار طالباً منها الصمت. وساد

الصمت حولها وتنصت الجميع لشيء، لم تعرف ماهيته.

لم تشك اطلاقاً أن ما سمعته كان صوت اطلاقة مسدس تبع ذلك ضجة واصوات مختلطة.

سمعت بعض الشتائم اطلقها كابتن لوبيز ثم تحرك بسرعة مبتعداً عنها. وزاد الامر سوءاً الانهيار الذي تلا ذلك واستمر وكأن اطنان الصخور تنهار بلا توقف تحت قدميها فسقطت على الارض، منادية باسمه وكانت مستعدة لحفر الارض بيديها العاريتين للوصول الى الرجل الذي احبته. ودفع ازدياد الانهيار الغبار الى علو مرتفع فلم يدع لها فرصة التوقف عن البكاء لحظة واحدة.

«ميندوزا.»

وكررت اسمه عدة مرات برتابة مخيفة ويأس صور لها جسمه مكوماً تحت الصخور في ظلمة النفق.

وضغطت على شفتيها بقبضة يدها، كالاطفال، محاولة ايقاف نفسها عن الصراخ والبكاء، ومحاولة التحكم بمشاعر اليأس المسيطرة عليها.

لمستها يد شخص مجاور لها فانكمش جسدها ورفضت المساعدة.

«دعني، اتركني لوحدي اريد الموت.»

«لكن الحياة لا تزال جميلة، كما قلت لي الليلة الماضية!»

حملقت سوزان في وجه الرجل غير مصدقة ما سمعته. كان وسخاً مثلها وملابسه ممزقة، كان هناك جرح عميق في جبينه وآخر في كتفه

«ميندوزا.»

ورمت نفسها بين ذراعيه.

«ماذا حدث ؟ كيف نجوت؟»

«لفترة قصيرة ظننت انني لن انجو إلا انني سمعت صوتك منادياً إياي ابنتها الحبيبة.»

«ظننت انك قتلت، حين سمعت صوت الطلقة ثم الانهيار، لم اتصور كيف يمكن لأي انسان النجاة من هناك.. صمتت فجأة وحدقت في وجهه.

... مارك ... أه، كيف نسيت ؟ اين هو ؟ هل جاء معك؟»

«كان في النفق السفلي حين اثرت غضب رودريغو ودفعته لاستخدام مسدسه. طلبت من مارك الهرب. لو اطاعني هناك احتمال في بقائه حياً. كنت اود ارساله معك خلال النفق العلوي، لو انني اقنعت رودريغو، كما تعلمين.»

«نعم.»

اجابت بحزن. واستدارت باقية وهي في هذه الحال لفترة قصيرة، هادئة وساكنة محاولة السيطرة على حزنها.

ثم ساعدها على الوقوف وبدأ انحدارهما المتعب الى قاعدة الجرف. ورأت بقية عصابة رودريغو وبضمنهم كارلوس مقادين من قبل الشرطة، تحت الحراسة المشددة. الا انها لم تستطع التشفي لذلك، بل بقيت تنظر الى مدخل النفق حيث كان بعض الجنود يحفرون. فتذكرت حلمها القديم وارتعشت

«صديقي ميندوزا!»

تقدم لوبيز نحوه راكضاً.

«لم اصدق بقاء انسان حياً بعد الزلزال العنيف.»

ثم اشار باتجاه المدخل. تحركت سوزان بعصبية فاسترعت اهتمامه.

«اوه، كلا ليس مارك - انه حي واصيب بكسر في ساقه. وجدناه قرب المدخل واحد رجالي يقوم الآن بتثبيت ساقه وفي استطاعتك بعد ذلك رؤيته.

«كابتن لوبيز ، ساقبلك لهذا الخبر السار.»

«سنيوريتا، ذلك شرف لي.»

وابتسم بفرح رغم نظرته القلقه السريعة الموجهة نحو ميندوزا - ثم احنى رأسه فقبلته على خده

«ساذكر طوال حياتي كيف جذبتني من تلك الحفرة. ما حدث كان معجزة وخاصة وجودك هنا في تلك اللحظة. وها انت تعيد اليّ مارك.»

«كلا، ليست معجزة، اذ نحن بانتظار رودريغو ورجاله منذ زمن طويل. ميندوزا عمل معنا ايضاً، مستخدماً نفسه كفخ. وحين علمنا باحتجاز اخيك ادركنا ان فرصة القبض على رودريغو حانت أخيراً. الا اننا غيرنا خطتنا حين علمنا بمجيئك للعثور على أخيك.»

«خطة؟»

«نعم يا سنيوريتا.»

ونظر الى ميندوزا بدهشة ثم ضحك محاولاً تغطية جرحه.

«حسناً، كل شيء على ما يرام. هل بقيتم مرابطين هنا منذ يومين لمراقبة ما سيحدث؟»

اومأ برأسه ايجاباً، رغم احساسه بانه ارتكب خطأ ما رغم عدم ادراكه لما هيته.

«نعم، سنيوريتا.»

ابتسمت بطريقة ساحرة رغم طبقة الغبار الذي غطى وجهها.

«انك ممتاز في عملك يا سنيور، لم تكن لدي اي فكرة عن وجود الجنود حولنا. لو كنت اعلم. لو ادركت أن الامر كله خطة مرسومة منذ البداية لالقاء القبض على رودريغو، لاختلفت الامور كلها.»

«يجب ألاّ تستهيني بخطورة الموقف يا سنيوريتا. كان من الممكن حدوث خطأ في اي لحظة. رودريغو حيوان يصغي لغرائزه فقط وسلوكه لا منطقي. وكان في امكانه قتل سنيور دي ميندوزا لحظة ظهوره في باحة الدير يوم امس.»

«لكنك تعلم ان السنيور مقامر يجيد حساب اوراقه الرابحة والخاسرة...»

نظر اليها الكابتن بحيرة.

«أرجو ان تعذريني سنيوريتا، وانت يا ميندوزا - اذ لدي الكثير من الاعمال.»

«نعم، انني اقدر ذلك. ساتحدث معك فيما بعد.»

وانتظر الى ان ابتعد عنها الكابتن ثم قال لسوزان:

« سوزان ، اعرف ما الذي تفكرين به.»

«بالتأكيد. انك تعرف ذلك. انني افكر بسلوكي الاحمق ليلة امس. اكاد اموت خجلاً حين افكر بما جرى. كان في امكانك اخباري عن لوبيز ورجاله، إلا انك لم تفعل.»

«كلا، لم اخبرك لاسباب اعرفها. كان علي اقناع رودريغو بان استسلامي له كان حقيقياً، لو اخبرتك الحقيقة، ربما كان مظهرك سيفضح اللعبة. كلمة واحدة

كانت كافية للقضاء علينا جميعاً.»

«انها اسباب جيدة، وكنت أنا المفضوحة الوحيدة، حيث أقتحمت غرفتك، جادلتك اجبرتك على... لانني فكرت بانها الليلة الاخيرة، الليلة الوحيدة...»

ودفعت نفسها بعيداً عنه حين حاول الامساك بكتفيها.

«وهل يختلف الامر الآن، بعد معرفتك الحقيقة ؟ هل هذا التحول جزء من شخصيتك البريطانية المتقلبة ؟ هل تحاولين اخباري انك تفضليني كبطل ميت على المحب الحي ؟ لم يكن ذلك رد فعلك حين وجدتك تبكين عند قمة الجرف. او ربما اردت اظهار براعتك كممثلة؟»

«كنت ضحية صدمة قوية. اما اذا كنا نتحدث عن التمثيل فأعتقد انه عليك مزاولة المهنة لانك تجيدها. وقبل أن انسى.»

ثم انحنت ساحبة من جزمتها رسالته لامه.

«هاك الرسالة المؤثرة، لتتخلص منها».

ثم مزقت الرسالة الى قطع صغيرة ونثرتها حوله.

«انتظري لحظة واحدة. لو أن طلقة رودريغو اصابتني لكنت الآن في طريقك لتسليم الرسالة. هل تدركين ذلك؟»

«انا آسفة لان ذلك لم يحدث.»

وانتابها الخجل من جديد لفكرة قضاء الليلة الماضية معه، وتذكرت كلماتها له والاشياء التي فعلتها معه ثم قالت:

«إلاّ أنك كنت مدركاً لعدم خطورة الموقف، لانك تزن كل خطوة تخطوها وكل الاحتمالات. ذلك ما لا استطيع غفرانه. الطريقة التي واجهتني بها ثم الاسباب عن السبب الحقيقي.. وتركتني اضحي بنفسي...»

وضحك بقسوة:

«تضحين؟ العذراء الشهيدة؟ ثم انا متأكد ان الضحية المقدسة لا تستجيب تماماً لروح المناسبة، كما فعلت.»

«كيف تجرؤ على اهانتي بذكرك التفاصيل...»

ثم توقفت لجهلها الانتقام الملائم.

صرخت ثم رفعت يدها وصفعته. للحظة واحدة لم يصدق ما جرى ثم ظهر الغضب على وجهه بوضوح، ولن تحتاج النظر حولها لتدرك أن رجال لوبيز شهدوا ما فعلته. وعندما استدارت لتذهب باحثة عن مارك، امسك بها من الخلف، رفعها ووضعها على ركبته ثم ضربها أربع مرات، قبل أن تستطيع تحرير نفسها من قبضته والغضب يكاد يعميها

«ايها القذر.»

«اضربيني مرة اخرى وانت تعرفين ما الذي سيحدث.»

«لا تقلق لن أمسك مرة اخرى. اتمنى ألاّ أراك مرة اخرى.»

«امنية لن تحقق لسوء الحظ»

«ماذا تعني؟»

«تربط بيننا صفقة اطلب منك تسديد دينك فيها. حيث وافقت على جلبك هنا مقابل شرط معين.»

وابتعد تاركاً اياها محدقة في الفراغ بسكون غريب.

١٠ ـ حيث تكون... أكون

لم يكن مقر قيادة الجيش المحلي مكاناً فاخراً. إلا انه احتوى، على الاقل، حماماً خاصاً مزوداً بالماء الساخن، وكذلك باباً يقفل من الداخل، الامر الذي أفرح سوزان بشكل خاص، حين اغلقت الباب لتستحم.

كان عليها الانفراد بنفسها لتفكر وتخطط للخطوة القادمة، ورغبت بالخلوة لتحقيق ذلك. وفكرت بان ميندوزا لن يمتلك الجرأة اللازمة لكسر باب الحمام واقتحام خلوتها.

استخدموا سيارة الجيب لنقلهم من ديابلو وسرت سوزان لوجود لوبيز معها في السيارة مما منعها من تداول أي حديث شخصي. وأحست بنشوة غريبة تسري في جسدها لحظة انغمارها بالماء الساخن، وألمتها الخدوش والكدمات العديدة في جسدها، ذكرى مؤلمة لليلة الماضية وللزحف في النفق الطويل. الحقيقة أن ضربات ميندوزا لم تؤلمها جسدياً قدر ما جرحت كرامتها. ثم كانت الصدمة الحقيقية حين جعل من الواضح لها انه لن يسمح بابتعادها عنه.

تنهدت سوزان وهي تغتسل ولا زالت فكرة خداعه لها، مسألة لن تغفرها له، رغم توضيحه الدائم لها رغبته في تسديد دينها له في ديابلو. كما انه لم

يوضح الظروف الخاصة المحيطة باستيفاء وعدها. وكانت هي بدورها مصممة على رفضها لها لاسباب تعرف وجاهتها الآن. هذه حقيقة لا تستطيع انكارها حتى في اقصى لحظات غضبها.

على الاقل اوضحت لها أحداث الايام الاخيرة بعض ما خفي عليها طوال الرحلة فعرفت أن ميندوزا تركها في بيت ماريا نهاراً كاملاً ليلتقي بالكابتن لوبيز وخلال ذلك علم بوجود مارك واحتجازه من قبل رودريغو ورجاله. وكان لوبيز على وشك مهاجمة رودريغو إلا أن ميندوزا منعه من ذلك حماية لأخيها، لاحتمال اصابته بطلق ناري طائش أثناء القتال بين لوبيز ورجاله من جهة ورودريغو وعصابته من جهة اخرى. حينئذ اتخذ ميندوزا قراره بالتوجه لوحده لانقاذ حياة الشاب الانكليزي، شقيق حبيبته كما قال كارلوس. وأدرك فداحة الثمن المطلوب منه حين قرر ابعاد رجال العصابة عن مارك واقتيادها الى مكان اختباء رجال الدورية.

اما التغير الحاسم الاخير في الخطة فجاء نتيجة لعصيانها أوامره واحتجازها من قبل رودريغو. حينئذ فقط قرر ميندوزا اقتياد رودريغو الى مخبأ الزمرد ودفعه الى تفجير المكان ودفن الكنز الى الابد جنبا الى جنب مع جثة رودريغو.

توقفت عن فرك جسدها لتفكر جيداً بما حدث خاصة بعد أن زالت موجة الغضب الاولى. وبدأت تعتقد ان سلوكه لم يكن خادعاً كلياً وربما كان صحيحاً ما ذكره لوبيز عن الاخطاء غير المتوقعة ونتائجها الخطرة. واقل تلك المخاطر كان سقوط صخرة على راسه لتحطيمه كما حدث لرودريغو.

ثم كان هناك شيء آخر لم تأخذه بالاعتبار، إذ ان فاناس تقدم لانقاذها معتقداً ان مارك حبيبها وكان ذلك لوحده دليلاً على عدم انانيته، رغم أن دافعه الاول كان الانتقام من رودريغو، اما وجودها ومارك فكان صدفة طارئة.

وكان مارك مشكلة اخرى، حيث قررت العودة معه فوراً الى بريطانيا غير أن طبيب الجيش لم ينصح بذلك، ثم ان سوء معاملته أثناء فترة اعتقاله وصدمة

الحادث الاخير، اضافة الى رجله المكسورة عقد من حالته الصحية مما استدعى بقاءها فترة اطول لحين شفائه. ولخيبة املها سمعت ميندوزا يذكر للكابتن لوبيز عن استدعائه سيارة اسعاف خاصة لنقل مارك الى منزله حيث توجد ممرضة ستتولى رعايته. وتكررت بحتمية اهتمام الجميع بها لانها حبيبة السيد. ولم تثر الفكرة اشمئزازها كما توقعت بل ابتسمت مرحبة بها. حسناً، انها لم تستجب لرغباته. أما الآن فانها متورطة تماماً في علاقاتها به.

وخرجت من الحوض وبدأت تنشيف نفسها ثم لفت المنشفة حول جسدها النحيف قبل ان تفتح باب الحمام. ورأت ملابسها النظيفة موضوعة على سرير الكابتن لوبيز وتمنت لوانها سألته اعطاءها روباً. كانت متأكدة بانه مستعد لاعطائها كل شيء، لأنها وكما ظن الجميع، حبيبة ميندوزا .

سارت الى غرفة النوم بهدوء ثم وقفت فجأة حين امسكت يد ما بكتفها.

«اريد التحدث اليك.»

«انت!أخرج من هنا!»

«لا تصرخي، ليس في نيتي احداث فضيحة.»

«انك تدهشني بمعارضتك فضيحة، والنوم معاً في غرفة واحدة يتغاضى عنها الجميع. انني احب ان يكون للرجل مبادىء حتى لو كانت مبادىء مزدوجة.»

«ارجو ان تتوقفي عن اهانتي واصغي لما سأقوله، اذ ليس لدي وقت كاف لغير ذلك. اخبرني بابلو انك طلبت منه ايصالك الى بوغوتا .»

«هذا صحيح.»

لم تستطع انكار ذلك رغم رغبتها بكسر عنق بابلو.

«اخبرته بان ذلك غير ضروري، وانك قادمة معي الى بيتي.»

«كلا، لست ذاهبة معك.»

«ستنفذين ما اقول يا سوزان.»

كانت لهجته باردة وهادئة وسلوكه سلوك السيد النبيل.

«انك لا تفهمني، اريد العودة باسرع وقت الى بريطانيا لرؤية جدي واخباره ان مارك حي.»

«انتهيت لتوي من وضع الترتيبات اللازمة لذلك ولاخبار جدك بسلامتكما سوية، كما تم ابلاغه انكما نتيجة لخطورة ما تعرضتما لها، في حاجة ماسة لقضاء بعض الوقت في بيتي، في لينوس وبضيافة والدتي.»

«انك واثق من نفسك الى حد بعيد. وكيف ستعرفني بوالدتك ؟ لا أظن أن والدتك معتادة على لقاء عشيقاتك. او ربما تريد تعريفها بمارك فقط واخذي الى المنزل خفية ؟»

«كلا. لن افعل ذلك. كما لن اعرفك بوالدتي كعشيقتي. بل سأقول لها: يا امي، هذه سوزان روح حياتي. احبيها كما لو كانت طفلتك.»

ضعفت سوزان وعجزت عن الكلام للحظة ثم نظرت اليه باستغراب.

«لا افهم ما تقوله.»

«كلا! الامر بسيط. ستذهبين الى بيتي باعتبارك زوجة المستقبل.»

لحسن حظها كانت حافة السرير قريبة منها، لان ساقاها خذلتاها فجلست على السرير.

«لا بد انك مجنون!»

ودهشت لثبات صوتها.

«هل تستطيع اعطائي سبباً واحداً يدفعني لقبول عرض الزواج؟»

وتحدث بهدوء وكأنه يتحدث عن المناخ.

«استطيع اعطاءك عدة اسباب إلا ان المهم منها، هو الاحتمال الذي بحثناه ليلة امس.»

«تعني انني قد اكون، ولكن اليس من المعقول اكثر الانتظار ورؤية ما سيحدث؟»

«كلا. ستتزوج وباسرع وقت. سيولد طفلي بدون أن تمس اسمه شائبة.»

«اهو مخطط اخر مرسوم بدقة؟»

«نعم اذا أردت اعتباره كذلك.»

«ولكن، حاول التفكير جدياً. ربما لن يحدث ذلك!»

«لا يهم الآن. دعانا بابلو لتناول وجبة العشاء معه.»

«ساكون مسرورة لتلبية الدعوة. أرجو ألاّ يتوقع مني ارتداء شيء خاص للمناسبة.»

وابتسم لاول مرة قائلاً:

«انا متأكد انه سيتوقع رؤيتك مرتدية ما هو اكثر من منشفة. إلا أنه يعلم ان التنورة ليست اساسية لركوب الحصان في رحلة خطرة الى دبابلو.»

«كلفتني هذه الرحلة ثروة طائلة، اذ تمزق كل ما اشتريته اضف الى ذلك ما مزقه كارلوس في البداية.»

«اذن، اعتقد انه من حسن حظك الزواج من رجل سعيد بتجهيز دولاب ملابسك بكل ما تحتاجينه.»

وكان صوته جافاً

حدقت سوزان في وجهه وارادت الاعتراض قائلة انها لم تعن ذلك وأن ثراءه لن يغير من حقيقة مشاعرها نحوه، إلا انها شعرت ان الصمت افضل في مثل هذه الحالة. بدلاً من ذلك قالت:

«يبدو انك واثق بانني ساقبل عرضك.»

«هل يراودك الشك في صحة ذلك؟»

«لا اظن ذلك، اذ يبدو لي انك تحصل دائماً على ما تريد، أليس كذلك؟»

«هل ذلك صحيح؟»

وغادر الغرفة محكماً اغلاق الباب خلفه، تاركاً اياها في حيرتها. لا بد أنه أغرب عرض للزواج تتلقاه فتاة. بل انه، في الحقيقة، لم يعرض عليها الزواج بل شرح لها ما سيحدث لها كأنها لا علاقة لها بالموضوع، وما زاد الطين بلة انه لم يقل انه يريد الزواج منها، ولم يهتم باعترافها كما انه لم يقبلها ما دفعها للاحساس بغرابة الموقف. مدت يدها لارتداء ملابسها مؤكدة لنفسها أن سبب ارتعاشها يعود لوقوفها مغطاة بالمنشفة الرطبة لفترة طويلة.

لم تشعر سوزان بالأسف لمغادرة موقع الحورية في اليوم التالي. كان العشاء موقفاً محرجاً لها اذ تبادل الضباط الحاضرون نظرات الاستغراب والابتسامات فيما بينهم حال دخولها الغرفة. لا بد ان كارلوس أخبر الجميع بقصتها إلا ان موقفهم

تغير الى الاحترام الكامل حين وقف ميندوزا معلناً عن زواجها في المستقبل القريب ووقف لويز متمنياً لها السعادة.

تقبل ميندوزا التمنيات باحترام لكنه حافظ على برودته حيالها مما دفعها للاعتقاد بانه يعاقبها على ما وصفته به في دبابلو. وأصبح سلوكه اكثر قسوة وابتعاداً حين سمع قرارها بالسفر مع اخيها في سيارة الاسعاف بدلاً من السفر في طائرة الهليكوبتر المنتظرة. لحظة ظنت بانه سيجادلها او يحاول ارغامها على الذهاب معه إلا انه اكتفى باخبارها ان لها حرية الاختيار وابتعد متجهاً نحو الطائرة.

وتحولت رحلتها الى كارثة. إذ كان مارك يعاني من بعض الآلام مما جعل سلوكه حملاً لا يطاق وواصل طول الطريق التشكي والجدال معها، يلوم ميندوزا لكسر ساقه متجاهلاً امكانية خسارته لحياته.

وفقدت سوزان صبرها في منتصف الطريق، فاخبرت مارك ان عليه اعتبار نفسه محظوظاً.

«لا ادري كيف تقولين هذا، خاصة بعد ان جرّنا كلنا الى النفق الخطر.»

«انه لم يجرك الى أي مكان. اذ كنت هناك قبله، شكراً لخصامك السخيف مع جدي وجشعك.»

«كلما فكرت ان الزمرد كان هناك طوال الوقت ولم استطع العثور عليه.»

«انت والآف الرجال من قبلك. انا مسرورة لما فعله ميندوزا. الزمرد مدفون الآن الى الابد ولن يستفيد منه احد.»

«حسناً، اعتقد بانه مجنون تماماً ليتخلص من تلك الثروة الطائلة.»

«كانت الجواهر ملعونة ولعنتها ابوية. الم يخبرك ميغيل أرقاليز ان...»

«ميغيل يتصرف مثل امرأة عجوز. ما كنت بقليل من سوء الحظ لو انني امسكت المجوهرات بين يدي. لا تقولي لي إن عائلة النبيل ميندوزا لم تستفد من المجوهرات منذ اجيال.»

«لن اتحدث معك اكثر من هذا. اذ انك لن تصدقني. واظن انك حصلت على ما يكفيك من سوء الحظ حتى الآن.»

قالت ناظرة بشماته الى ساقه المكسورة.

ولجأ مارك بدوره الى الصمت ووجدت سوزان نفسها آسفة لقرارها بالسفر معه، اذ بدا من الواضح انه ليس بحاجة لى وجودها. ورغم ثقل الهواء والمطبات الترابية، إستطاعت سوزان النوم قليلاً ثم استيقظت عندما احست بوقوف السيارة. نهضت واقفة وحاولت، بلمسات سريعة، تصفيف شعرها ونفض الغبار عن بنطالها. وكان أول شخص رأته عند نزولها من السيارة هو ميندوزا مرتدياً بدلة صيفية انيقة. ثم تقدم منها وقبلها على خدها.

«اهلا بك في بيتك سوزان . والدتي تنتظرك للترحيب بك..»

وامسكت بذراعه الممدودة نحوها واحست بشعور احمق وهي تسير تحت القوس الخارجي لباب المنزل وحيث الخدم اصطفوا هناك. وتمنت لو استطاعت الظهور بمظهر أفضل من ارتدائها الجينز والقميص. وظنت ان الزي الملائم لذلك الاحتفال كان قميصاً حريرياً وتنورة طويلة وربما قبعة عريضة الحواشي.

واعجبها طراز بناء البيت، بيت من طابقين عكس بوضوح جمالية الفن المعماري القديم. اما باحة المنزل فكانت مزينة بالزهور والنافورات المائية وفي الجانب الخلفي بدا ما يشير الى وجود حوض للسباحة. وكان داخل المنزل تعبيراً عن فخامة الخارج حيث صعدا أعلى سلم مزخرفة جوانبه بشكل فني رائع.

«لوالدتي جناحها الخاص في الطابق الاول. وقد امرت بأخذ مارك الى غرفته مباشرة اذ كانت الرحلة طويلة ومتعبة بالنسبة اليه.»

وافقت سوزان على ما قال بصدد التعب وحاولت تجنب مجادلته لئلا يفكرها باختيارها الخاطىء لاسلوب المواصلات.

سارا عبر ممر طويل، الى غرفة فتح ميندوزا بابها، وفي الوقت نفسه نظر الى وجهها

«استرخي يا سوزان ستسر والدتي بك، خاصة وأنها صلّت كثيراً ليتحقق حلمها بلقاء زوجة المستقبل»

كانت والدته امرأة متوسطة الطول. إلا أنّ كبرياءها وشخصيتها القوية تبدو اطول. ارتدت فستاناً اسود مزيناً بحلية ثمينة للصدر. ووجدت سوزان نفسها

بين ذراعي السيدة وهي تقبلها بحنان.

«ليحفظك الله يا طفلتي.»

وتلألأت الدموع في عيني السيدة.

«وليحفظك الله يا فاتاس لانك جلبتها للقائي. انها جميلة كالملاك. ستكون عروسة فاتنة وسأكون مسرورة جداً لاعداد فستان عرسها فقد مضى وقت طويل على زواج جوانيتا».

«منذ عامين، اذا اردت الحديث مع سوزان عن الملابس فسأترككما لوحدكما وسأذهب لاتفقد مارك وما يحتاجه.»

احست سوزان بالحرج لبقائها وحدها مع السيدة.

«تعالي واجلسي هنا يا طفلتي، واشارت لها بالجلوس على كنبة قريبة من نافذة عريضة. لن أؤخرك فترة طويلة، اذ ستحتاجين الذهاب الى غرفتك ثم الاغتسال والاستعداد للعشاء. ارسل فاتاس يطلب امتعتك من اسانكشن. إلا أنني اخترت بعض ملابس جوانيتا لتلبسيها حاليا. واذا ما اخترت احد الفساتين لتلبسيه الليلة سأرسل لك وصيفتي لاجراء ما يلزم من التغييرات فيه.»

ثم ابتسمت مضيفة:

«فيما بعد، اختاري الوصيفة الملائمة لك. ولكن في البداية ستتولى خدمتك مجموعة من الفتيات الى ان تتعرفي عليهن ويتم لك اختيار من ترغبين فيهن».

ثم رفعت من على الطاولة قطعة قماش مطرز وبدأت التطريز عليها.

«كذلك طلبت من خياطتي المجيء بعد يوم غد وستجلب معها مجموعة من نماذج الاقمشة والازياء لتختاري من بينها فستان عرسك.»

«بهذه السرعة؟»

سألت سوزان

«طفلتي العزيزة، فهمت مما اخبرني اياه ميندوزا أن من الافضل اتمام زواجكما باسرع وقت. انه يخبرني دائماً بما يحدث له. هل ازعجك الامر؟ هل توقعت أن اصدم لما حدث؟ هل تظنيني اجرؤ على احتقار فتاة ساعدته على ابعاد الظلمة عنه؟»

انهمرت دموع سوزان لتفهم السيدة لسلوكها، خاصة بعد طعن مارك المتواصل لها.

«لم اعرف ما الذي اتوقعه في المستقبل.»

«انك متعبة، كما انك عانيت كثيراً على يد الشرير رودريغو ليرحمه الله سأطلب من جوزيتا ان تأخذك الى غرفتك».

كانت جوزيتا امرأة عجوز ذات وجه كئيب، الا أنها ما ان تبتسم حتى تتغير ملامحها، وابتسمت كثيرا حين رأت سوزان تتفحص غرفتها.

كان السرير جميلاً وثميناً، ذو اعمدة اربعة تحيط به وشرشف مطرز ودانتيلا تزين حواشي الغطاء حتى تصل الارض. اما النوافذ فمغطاة بستائر حريرية خفيفة سمحت لاشعة الشمس بالدخول من كل جانب. ودل اختيار لون السجادة وطلاء الحائط على ذوق وبذخ من اختارهما.

وتذكرت مساعدة ماريا لها حين بدات جوزيتا مساعدتها على خلع ملابسها والباسها روب حريري جميل ثم قادتها الى خزانة الملابس لتلقي نظرة على ملابس جوانيتا . بدا من الواضح ان جوزيتا فضلت الفستان الاول وكان فستاناً كلاسيكيا من الشيفون الابيض واكمام مزينة بالكشاكش، الآ أنها لم تكن مستعدة للنزول مرتدية فستاناً من هذا النوع اختارت لنفسها فستاناً ازرق غامقاً ومزيناً بنقاط بيضاء، من الطراز الاسباني. كان الطول ملائماً إلاّ أن خصرها كان انحف من خصر جوانيتا فاخذت جوزيتا الفستان لتصلحه لها. استلقت سوزان على السرير وحاولت الاسترخاء. اشعرها ترحيب السيدة بالدفء إلا أنها ادركت حاجتها الشديدة الى ميندوزا ليثير فيها الاطمئنان، حيث اخافها بروده وفضلت سخريته على سلوكه المهذب البارد، او عاطفته المستعرة التي اعتادت الهرب منها في الماضي. هل غيره رفضها الحاد له بعد هربهم من نقق دياباو؟ ودارت الافكار مختلطة في ذهنها بلا توقف. كانت السيدة محقة خاطبت نفسها إنني متعبة بل ومستنفدة القوى. وسيختلف كل شيء غدا.

إلا أن الامور بقيت كما هي في اليوم التالي والاسابيع التالية ايضاً.

احست سوزان أنها تعيش في حلم. اذ وقفت مثل دمية بينما قامت امرأة

سمراء قصيرة القامة بتجريب باردات من قماش حريري حليبي اللون. سارت في الحديقة الى جوار النافورات. زارت مارك في غرفته حيث بقي تحت اشراف الطبيب. تحدثت الى السيدة. سبحت في حوض السباحة مرتدية مايوه سباحة يعود لجوانيتا وتم تغييره ليلائم قياسها. بقيت مسترخية لفترة طويلة، تحت اشعة الشمس غيرت ملابسها لتناول العشاء مع العديد من الاقارب ممن دعتهم السيدة لتعريفها بهم. بعد العشاء بدأت أخذ دروس باللغة الاسبانية. محاولة قدر الامكان تجنب النظر الى الجهة الأخرى حيث يجلس ميندوزا عادة. وفي العاشرة تماماً كانت تنهض لتقبل السيدة متمنية لها ليلة سعيدة ثم يرافقها ميندوزا حتى الباب، ليقبل يدها ثم خدها ببرود.

لم تصدق نفسها حين حدث ذلك كله للمرة الاولى حيث توجهت الى غرفتها دائخة ثم ساعدتها الفتاة الواقفة بانتظارها على تغيير وارتداء قميص نوم من الدانتيلا الجميلة، ثم استلقت في الظلام، متوقعة قدومه، مراقبة الباب بانتظار مجيئه.

لم يتطرق اليها الشك في صحة مجيئه خاصة بعد تحذيره إياها بأن دينه سدد كاملاً في دياباو ثم انها رغبت في مجيئه اليها واسترخائه الى جانبها. وحتى بعد منتصف الليل بقيت صاحية في انتظاره. إلاّ أن باب غرفتها بقي مغلقاً. ليس تلك الليلة فحسب ولكن كل الليالي التالية. لم يحاول الاقتراب منها وحتى اثناء النهار اذا التقت به صدفة كان يخلي لها الطريق بعد أن يبتسم لها بأدب وتصرف معها بطريقة أوحت لها بانه سيتصرف بالطريقة ذاتها مع أي ضيف في بيته.

لكنه قضى اغلب وقته خارج المنزل ووضحت والدته الامر قائلة بانه مشغول بانجاز الكثير من اعماله المعلقة.

«انه يعمل ضعف السابق الآن كي يستطيع التفرغ بعد الزواج. لعروسه الشابة.»

وبادلتها العروس الشابة الابتسامة وسألت نفسها عما اذا كان لها اي موقع في خططه للمستقبل.

الا انها لم تستطع انكار اهتمامه بانجاز بعض الامور الهامة. حيث دفع احد

اصدقائه من الدبلوماسيين الموجود في لندن للاتصال بالسير جايلز وطمأنته على وجود سوزان ومارك تحت رعايته كما بلغ سوزان عن تحسن صحة جدها. وتم جلب بقية حاجياتها من أساتكشن اضافة الى شرائها من الملابس الجديدة بعد توجهها الى بورغوتا للتسوق مع السيدة مرتين.

وهكذا كانت ايامها مبرمجة. إلا أن احساسها بالفراغ لم يفارقها. وكلّما فكرت بانها وبعد اسبوع واحد فقط ستتزوج من رجل ما زالت لا تعرف عنه الكثير، ينتابها الخوف.

كما لم يكن هناك من تستطيع اللجوء اليه، وحتى مارك الذي بدأ يشفى من آلامه انشغل عنها بصداقته الجديدة مع أحد ابناء عم ميندوزا الشباب، يدعى خيمي، وشاركه هوايته في قيادة السيارات السريعة وبدا سعيداً جداً مكتفياً بالذهاب معه الى ضواحي فيلافيسكو.

ذهبت معهم سوزان مرة إلا أنها لم تتمتع بالراحة لانها لم تعجب باسلوب قيادة خيمي إلا أنها اعجبت بجمال الحقول الخضراء وتمنت لو أن ميندوزا عرض عليها ارتيادها معه، إلاّ أنه لم يفعل ولم تجرؤ هي على سؤاله. واكتشفت من خلال احاديثها مع خيمي والبقية ان ميندوزا لا يربي الماشية فقط بل له اهتماماته الانشائية والصناعية أيضاً، الامر المجهول لديها تماماً. وهكذا ادركت انها كلما اكتشفت حقيقة جديدة عنه كلّما ازداد جهلها به، رغم انها ستكون زوجته خلال ايام قليلة.

وقررت انها لا تستطيع احتمال دفعها السلبي اكثر من ذلك. كلا لن تقبل التحول الى زوجة كولومبية لا علاقة لها بحياة زوجها وهمها الوحيد تتبع اخبار أحدث الازياء، والحفاظ على زوجها بعيداً عن بقية الفتيات.

وكانت الفكرة الاخيرة مؤلمة اكثر من السابقات، وتذكرت صورة السيدة الاميركية معه وتخيلت نفسها تعاني من الوضع نفسه. أرادت أن تبقى لوحدها معه، ارادت التوجه اليه واخباره بشكوكها، قلقها.

اختارت صباحاً عرفت فيه أنه سيكون في مكتبه الواقع في الجهة الخلفية من المنزل. كان باب المكتب مفتوحاً ورأته واقفاً يحزم مجموعة من الاوراق ليضعها

في حقيبة يده، وكان وجهه كئيباً وفكره شارداً. لم يرها في البداية فتعمدت السعال لتنبيهه الى وجودها. رفع رأسه فرأت الدهشة مرتسمة على وجهه.

«شرف غير متوقع، هل تريدين شيئاً؟»

وارادت سوزان القول: نعم، انت. إلا انها احست وكأنها تخاطب غريباً فتقدمت منه وعينيها مثبتة على وجهه

«أردت التحدث اليك، لانني ألقاك نادراً في الآونة الاخيرة.»

«لسوء الحظ علي المغادرة للقاء مهم فوراً. إلاّ أن اهتمامك يفرحني ويدهشني بحثك عني، خاصة وانك اخبرتني منذ فترة قصيرة أنك لا ترغبين برؤيتي مرة اخرى.»

«حدث ذلك في الماضي. لكننا سنتزوج. اليس كذلك ؟ ومن الصعب جداً تفادي رؤيتك اذا اصبحت زوجي.»

ونظر اليها بقسوة:

«صحيح ما تقولينه، هل جئت لهذا السبب يا سوزان ؟ ان تعرفي ما ساطلبه منك بعد الزواج!»

«كلا. احتجيت بسرعة. ليس ذلك ما اريده. اردت التحدث اليك والتعرف عليك اكثر.»

اضافت بصوت منخفض.

اغلق حقيبة يده قائلاً:

«يفرحني ذلك إلا ان هناك من يقول بأننا نعرف بعضنا البعض أكثر من أي خطيبين.»

«ليس هذا ما اعنيه. وانت تعرف ما اقول».

وراقبته وهو ينظر الى ساعته.

«لا تدعني اؤخرك.»

«سنتحدث الليلة. اذا كان هذا ما تريدين. ربما حان الوقت لذلك. ولكن اعذريني الآن.»

وتوجه نحو الباب. الا انه توقف قربها لينظر الى وجهها وخاصة الى شفتيها،

فاحست بالانجذاب نحوه كأنه نومها تنوماً مغناطيسياً.

وقفت سوزان وسط الغرفة فترة طويلة جامدة. احست بانها مهملة، غريبة ووحيدة. دارت بها الارض فامسكت بحافة المكتب لتستعيد وعيها. ارادت الانطراح على الارض والبكاء الا انها احست بوجوب مغادرة المكتب، اذ لا بد ان السكرتيرتين تتمتعان بفترة الراحة الصباحية وستعودان خلال دقائق. ولم ترغب أن تُرياها واقفة في مكتب ميندوزا وعلى وشك فقدان الوعي. وكانت على وشك مغادرة الغرفة حين دق جرس التلفون الموضوع على المكتب فتسمرت في مكانها ولم تعرف اذا كان النداء خارجياً ام من داخل المنزل. ولم تظن ان معرفتها باللغة الاسبانية تؤهلها للاجابة على النداء والتوضيح بانها ليست السكرتيرة. الا انها فكرت بانه قد يكون نداء مهماً. فقررت الاجابة. كان الصوت صوت امرأة وذو لهجة اميركية واضحة.

« فاناس، عزيزي ! هناك تغير في الخطة سيكون من الافضل لو التقينا في الفندق»

وتوقفت في انتظار جوابه، ثم قالت بحدة:

«فاناس، هل انت هناك؟ »

بللت سوزان شفتيها بلسانها وقالت:

«اسفة يا سنيورا. غادر السيد دي ميندوزا منذ لحظات وأخشى أن الخطة يجب أن تتم حسب الترتيب الاول.»

ثم اعادت سماعة التلفون الى مكانها.

جلست سوزان في المقعد الخلفي من سيارة خيمي ، غير مدركة للحافز الذي دفعها للركض خارج المكتب للبحث عن خيمي . وجدته واقفاً مع مارك قرب السيارة وعلى وشك المغادرة الى فيلافيسكو فطلبت مرافقتهما.

قال مارك متفحصاً وجهها الشاحب:

«تعالي، رغم انك لا تبدين في وضع يسمح لك بالذهاب الى أي مكان، وماذا عن حقيبة يدك؟... ألا تريدين...»

«لا يهم ذلك. الا تستطيع التحرك فوراً. أرجوك؟»

تبادل خيمي ومارك نظرة طويلة وسمعت خيمي يتمتم عن عصبية العرائس. فكرت: دعهم يظنون ما يريدون. لا شيء يهم.

طوال الطريق، بقيت سوزان صامته غير مهتمة بسرعة السيارة ومحدقة بعينين لم تريا شيئاً من روعة الطريق. أخبرها احدهم، ذات ليلة عند العشاء، ان لاينوس منطقة صيد رائعة تتوفر فيها الغزلان. فاحست بانها تعرف احاسيس الضحية حين تجلس بين الاعشاب لفترة الطويلة، بانتظار القتل. ربما كانت ترحب بالقتل آخيراً للتخلص من القلق والانتظار حيث القسوة الحقيقية.

ربما سيكون موتها محتوماً حين ترى ميندوزا مع المرأة الاخرى اذ أنها، عرفت الآن معنى ألم الانتظار المبرح.

وتساءلت عن عدد المرات التي التقى بها عشيقته الاميركية بحجة اداء بعض الاعمال المستعجلة.

ولم تعجب لغرابة سلوكه حين واجهته في المكتب، ربما انبه ضميره أخيراً. قال بانه حان الوقت للكلام سوية. ربما كان على وشك إخبارها بعلاقته وليوضح لها أن الزواج سيتم حسب شروطه، وعليها سلوك الزوجة بدون التدخل بشؤونه الخاصة.

واحتار خيمي حين بدأت سؤاله عن الفنادق في المدينة. إلا انه اعطاها المعلومات اللازمة. أخبرها بوجود العديد إلا ان الفندق لدى السواح والأغلى أجراً هو بوبايات. فقال مارك بلهجة متأثرة:

«انك لست في حاجة الى فندق. ستذهبين معنا لتناول الغداء. هناك مكان رائع نعرفه.»

«ربما سألتقي بكما هناك فيما بعد، الا انني سانجز بعض الاعمال أولاً.»

«ارجو ان يكون من التسويق. انني مسرور لأن فاناس يدفع قوائم الحساب.»

قالت بهدوء:

«هذه المرة، لن يتوجب عليه ان يدفع شيئاً.»

كان صالون الفندق فخماً مكيفاً بالهواء، مكتظاً بالسواح المنتشرين حول الطاولات الصغيرة. عثرت سوزان على مكان شاغر مظلل بنباتات استوائية

ضخمة، اشعرتها رائحتها بالدوخة والاضطراب. ثم انها لم تكن متأكدة فيا كانت جالسة في الفندق المعني. ربما كانت هناك فنادق اخرى تؤجر الغرف بالساعات للعشاق. ثم انها لم تستطع سؤال كاتب الاستقبال عن ميندوزا ووجوده في الفندق. ثم رأته. رأتهما. كانا ينزلان درجات السلم وكان فاتاس ممسكاً بذراعها بلطف وحماية. كانت المرأة الواقفة الى جواره في الصورة نفسها، الا أنها بدت مختلفة. كانت مبتسمة، سعيدة ومرتاحة، وكانت ترتدي فستاناً عريضاً لم يخف حقيقة كونها حاملاً.

وانكمشت سوزان في مقعدها. كان الامر اسوأ مما توقعت او حلمت. وظنت انهما سيتقدمان باتجاهها وانه سيلاحظ وجودها ومراقبتها لتحركاته.

الا ان ذلك لم يحدث. بل وقف الاثنان جانباً ليتحدثا بصوت عادي واستطاعت سوزان سماع ما تبادلاه من جمل قصيرة.

«فاتاس انني سعيدة جداً. اسعد من أي وقت مضى. ولكن هل تستمر سعادتي؟»

اجابها بصوت خال من السخرية:

«لا تقلقي. سعادتك بين يديك، فاهتمي بذلك.»

وراقبتهما سوزان متجهين نحو باب الفندق، حيث توقفا هناك . ولم يعد بامكانها سماع حديثهما. الا ان المرأة ضحكت بينما قبل ميندوزا يدها مودعاً. عادت المرأة الى داخل الفندق لوحدها مغنية بصوت منخفض. واذ مرت قرب سوزان، التقت عيناهما للحظة فلاحظت سوزان السعادة متجلية في ملامحها. استدارت سوزان وصبت قهوة لم ترغب بشربها.

حزمت سوزان حقيبتها والقت نظرة اخيرة على الغرفة. لم تترك شيئاً تملكه ولم تأخذ شيئاً لا يعود لها. تركت في خزانة الملابس كل ملابس جوانيتا القادمة في اليوم التالي مع زوجها لحضور العرس، اضافة الى الملابس التي اشترتها لها السيدة دي ميندوزا ببذخ.

كان هناك شيء أخير. خلعت ميدالية فاتاس من عنقها ووضعتها على المنضدة المجاورة للسرير وفي مكان يرى بسهولة. لم تترك أي ورقة أو أي تفسير. ربما كانت ستترك رسالة ما إلاّ أنها لم تعرف كيف تبدأ فقررت أنه من الافضل

لها مغادرة المكان في صمت، اذ لم يعد بامكانها البقاء ومواجهة آلامها.

اتخذت قرارها بالمغادرة في طريق العودة من المدينة، واذ انشغل مارك بالحديث مع خيمي كانت سوزان تحسم الكثير من الامور. قررت السفر بالسيارة حيث ستستغرق الرحلة بين فيلافيسنكو وبوغوتا ثلاث ساعات وستأخذ السيارة بدون ان تخبر أحداً لانها تعلم ان خيمي يترك المفاتيح في السيارة عادة. كل ما عليها ان تفعله هو انتظار انصراف الجميع الى النوم ثم التسلل بعد ذلك لأخذ السيارة حتى بوغوتا حيث تتركها في كاراج هناك وتطلب من اصحاب الكاراج ابلاغ خيمي فيما بعد.

لم تكن فكرة العودة الى انكلترا ومواجهة اسئلة جدها الحتمية. فكرة مغرية، إلا أنها لم تملك اختياراً افضل. كما لم يكن بامكانها مصارحة مارك بما حدث إذ أنه سيتشفى لانها ورطت نفسها في علاقة حب مع رجل مثل فاتاس دي ميندوزا . وايقنت سوزان صحة اتهاماته ولكن في وقت متأخر.

واصلت التفكير بتلك الطريقة وحاولة. قدر الامكان. المحافظة على غضبها، لانه كان تحريراً لها من آلام اخرى لم تعرفها سابقاً. ولم يعد في امكانها قبول الزواج به على شرط التغاضي عن علاقته بامرأة اخرى.

وتأكد لديها، مما رأته وسمعته، ان علاقته بحبيبته علاقة دائمة لا يستطيع التخلي عنها وخاصة بعد حملها منه. وشعرت سوزان بمرارة لانها واثقة الآن. تساءلت عما اذا كانت حبيبته قد تركت زوجها. ربما كانت في انتظار الحصول على الطلاق، واذا ما اخلت سوزان الطريق، لا بد ان فاتاس سيعرض عليها الزواج.

مسحت سوزان دموعها وكررت لنفسها انها حسنة الحظ لاستطاعتها الهرب في الوقت الملائم فأي أمل لها مع ميندوزا . حتى لو لم تكتشف علاقته بحبيبته ! انهما ينتميان الى عالمين مختلفين، اضافة الى بقية العوامل. رآها ثم رغب فيها ولم يربط بينهما شيء اخر يمكن ان يؤدي الى اقامة علاقة دائمة بينهما إلا أنها تغاضت عن تلك الحقائق كلها حين عرض عليها الزواج وخدعت نفسها مفكرة بانه يود ابقاءها الى جانبه. واعتقدت ان حبها ورعايتها له سيحولانه من

مليونير، يقضي وقته بالتلهي مع النساء، الى زوج محب.

حسناً، انها تستحق ما جرى لها، ثم فتحت باب غرفة النوم بحذر ونظرت الى الممر.

لم تسمع اي صوت. لم تنزل لتناول العشاء معهم بحجة اصابتها بالصداع لانها تذكرت ما قاله فاتاس عن لقائها بعد العشاء، وعرفت بانها لن تتحمل مواجهته. فبقيت في غرفتها طالبة ألا يقلقها احد وتم احترام رغبتها من قبل البقية. وتمنت، اثناء مغادرتها، لو استطاعت وداع السيدة ميندوزا . وارتجفت وهي تنزل السلم على رؤوس اصابعها ثم عبر الصالة واخيراً الى الباب الرئيسي، حيث تمكنت من فتح الباب ومغادرة المنزل. خطت خطوتين ثم سمعت صوت سيارة فجمدت في مكانها. لم تستطع الهرب حاملة حقيبتها، كما لم تستطع وضعها على الارض والاختفاء، لأن القادم سيتمكن من رؤيتها. ورأت السيارة تقف على مبعدة عدة ياردات منها. اتسعت عيناها برعب لانها ادركت فوراً هوية القادم، المتوجه نحوها بهدوء.

«واين تظنين انك ذاهبة؟»

قال فاتاس غاضباً.

«انني عائدة الى انكلترا.»

«هل استطيع السؤال، لماذا؟»

«استلمت رسالة في الصباح الباكر من وكيلي المسرحي اخبرني فيها عن عرض لدور رائع في مسرحية جديدة، انها فرصة لا تعوض، لذلك قررت قبول الدور.»

«وماذا عن التزاماتك نحوي؟»

«لا اظن انك تريد مني الوفاء بها فعلاً. اعني لا حاجة لذلك الآن. اعني لا حاجة لقلقك علي.»

«لا اقلق عليك ! اعتقد ان ما تقولينه الآن هو اكثر اتهاماتك قسوة.»

«لا تذكر كلمة القسوة امامي.»

«وماذا يعني هذا؟»

«لا يهم. لا شيء مهماً. دعني اذهب أرجوك.»

اطلق فاتاس شتيمة وهو يتناول حقيبة ملابسها وقاذفاً بها بعيداً، بين الاشجار.

«لن تغادري المكان. لن تذهبي الى أي مكان بدوني. هل تسمعين يا سوزان؟»

وحملها بين ذراعيه واقتادها الى داخل المنزل، الى الصالة حين رماها على احدى الأرائك.

«لا يحق لك معاملتي بهذه الطريقة. انني حرة... انني...»

«ستكونين زوجتي.»

«كلا، لقد سمعت ما قلته لك، لا حاجة لذلك لا أريد قيوداً.»

«قيد؟ هل تصفين الزواج مني بالعبودية؟»

«نعم. ولست مجبرة على القبول به.»

«ما الذي تعنينه؟ من الافضل ان توضحي لي ما تقولين.»

«حسنا، رأيتك معها. بعد أن تركت الغرفة رن جرس الهاتف فاجبت وكانت المتحدثة فرجينيا ، المرأة التي كانت معك في الصورة.»

«نعم، وماذا في ذلك؟»

«لا تبدو خجلاً لذلك؟»

«لم اسمع بعد ما يستدعي الخجل. تقولين انك رأيتني. هل تعنين انك تبعتيني الى الفندق بسبب المكالمة الهاتفية؟»

«نعم، ورأيتكما في الفندق. ورأيت كيف كانت، وسمعت ما قالته لك عن سعادتها. ربما ستكون اسعد حين اخلي الطريق لها. لكنك لا تستطيع توقع زواجي منك والتغاضي عن علاقاتك الاخرى في آن واحد.»

فبدأ وجهه وكأنه قدّ من صخر، ناء وبارد مثل أعلى قمة في جبال الانديز.

«هل تظنين ان هدفي من الزواج بك هو ذلك؟»

«لا ادري ماذا اظن. لكنني اعرف جيداً انني أرغب بالفرار، بالعودة الى انكلترا. لا شيء يشدني الى هذا المكان. وفي امكانك الزواج بفرجينيا بعد ذهابي، اذا كان ذلك ما تريد.»

«يسرني تفكيرك بتحقيق رغباتي.»

وكان لوقع كلماته صدى غريباً في اذنيها.

«إلاّ انني لا ارغب الزواج بفرجينيا كما أظن أن لزوجها حق الاعتراض.»

«زوجها؟»

«اسمه روبرت ، وانا اعرفه وزوجته منذ سنوات. كان مسؤولاً عن انشاء وحدة كهربائية في احد معامل مديلن ، فاصبحنا اصدقاء منذ ذلك الحين. ونحن نبحث الآن مشروع شركة يمثلها هو، وجاء الى المدينة للقائي قبل التوجه الى مديلن لمناقشة الموضوع مع شركتي. قررنا الالتقاء اليوم عند الغداء إلاّ أن فرجينيا اتصلت بي في المكتب فلم تنجح، عدت معها الى جناحها في الفندق إلا أن روبرت بدا متعباً، لذلك تركتها. هل تريدين معرفة المزيد عن كيفية قضائي ليومي؟»

لم تجبه سوزان فواصل حديثه بعد وهلة:

«خدعتك عيناك واذناك. فرجينيا ليست حامل بطفلي بل بطفل روبرت . طفل انتظراه منذ زواجها. نعم، تحدثت عن سعادتها لأنها لم تكن سعيدة في السابق، حيث اكتشفت منذ اكثر من عام علاقة روبرت بامرأة اخرى ولامت نفسها لذلك. اذ انها كانت منخرطة في عملها اكثر من اللازم، مهملة روبرت في الوقت نفسه. وتركها اكتشافها لوجود المرأة الاخرى شقية.»

«فلجأت اليك!»

قالت سوزان بصوت منخفض.

«نعم، لجأت الي ولكن ليس كما تتصورين. ارادت الابتعاد فترة ما عن روبرت والوضع المؤلم. ارادت رؤية الامور بوضوح اكثر لتقرر ما ارادته من حياتها. واخذتها معي الى بيت ماريا لتحصل على الهدوء. كانت بحاجة ماسة الى صديق وكنت انا صديقاً مقرباً منها.»

نظرت سوزان الى اصابع يديها المتوترة ثم قالت:

«لكنها رغبت بك. رأيت ذلك في الصورة، رايت كيف كانت تنظر اليك.»

«ظنت انها تريدني. كانت وحيدة وتعيسة وظنت ان روبرت أهملها.»

ثم جلس الى جانبها، رافعاً ذقنها بيده مجبراً اياها على النظر اليه.

«لا ادري لم تسيئين الظن بي دائماً. هل تظنين انني سأزيد من متاعب فرجينيا ؟»

كلا لم تتوقع ذلك، الا انها لم تخبره برأيها. فقد يقودها الجواب الى إعترافات لم ترغب فيها. وكان من الافضل لها تفكيره بإساءتها الظن به على انه يعرف حقيقة مشاعرها وغيرتها ويأسها. فمنذ ان تخيلت وجود فرجينيا بين ذراعيه، تحولت الصورة الى كابوس دائم.

«أسفة... افترضت...»

«انك تفترضين الكثير من الاشياء الخاطئة منها أنني سأتزوجك على افتراض انك حامل، ثم ما ان اتزوجك حتى أسرع للارتماء بين ذراعي امرأة اخرى. ثم تفترضين انني سأسمح لك بالابتعاد عني. حسناً انك مخطئة في افتراضاتك الثلاثة كلها. ولا تكذبي بصدد العرض الرائع الذي تلقيتيه، حيث يمر كل البريد القادم الى المنزل بين يدي أولاً، ولم تستلم اليوم أي رسالة لك. لست أحمق الى هذا الحد.»

«انا ايضا لست حمقاء. قد اكون مخطئة حول فرجينيا، إلاّ أنك عرفت العديد من النساء قبلها.»

ونطقت جملتها الاخيرة باكية.

«من انكر ذلك. هل توقعت مني، حقا، العيش كراهب لحين مجيئك؟»

«لا اتوقع أي شيء منك، لانني لا أعرفك، ألا تفهم ذلك ؟ لا أعرف أي شيء عنك. لا شيء»

تغافلت عن ذكر جملة اوشكت على الهمس بها. عن معرفتها به كعاشق، عن حرارته وقوته وعن لطفه معها في البداية.

«انه لغريب. ان تشعري بذلك، خاصة وأنني منذ لحظة لقائي الاول بك أحسست بانني اعرفك، وكنت انتظرك دائماً. لم تبعتك طوال الطريق ؟ هل لاجعلك عشيقتي؟»

وضحك بخشونة.

«كانت هناك نسوة اخريات، فلم تبعت امرأة حاربتني دائماً ؟ تبعتك لانني

أحبتك، وكنت على وشك قتل كارلوس بيدي العاريتين من أجلك. واذا ما تركتني، سأتبعك من جديد حتى لو اضطر الامر ان اتبعك الى بريطانيا.»

حدقت في وجهه بعينين واسعتين ورأت لاول مرة ألمه وقلقه لسلوكها، فقالت:

«فاتاس...»

ورمت نفسها بين ذراعيه فعانقها بعاطفة مسحت كل شكوكها. وعانقها بقوة اكثر، قبل ان يوضح موقفه.

«ربما كان ذلك صحيحاً في البداية. كل ما عرفته هو رغبتي الجنونية فيك، خاصة حين ذهبت الى غرفتك في الفندق ورأيتك نائمة، جميلة وبلا حماية منذ ذلك الحين اعتدت الاستيقاظ معذباً نفسي بتخيلك. عرفت، أيضاً، منذ البداية أن الامر سيكون مختلفاً معك، إلا أنني بصراحة، لم أعرف برغبتي في الزواج منك، بل تطورت مشاعري فيما بعد. هل تذكرين ليلتنا في بيت ماريا؟ حين دخلت غرفتنا فرأيتك واقفة في انتظاري، مرتدية قميص نوم ماريا الابيض.»

«كان سلوكك غريباً.»

قالت بخجل فأمسك بيدها وقبلها.

«كنت مندهلاً. جلست طوال فترة تناول العشاء، مفكراً بأنني ساحصل عليك اخيراً، وكدت اطير نحو الغرفة حين اخبرتني ماريا عن استعدادك. ولكن حين فتحت باب الغرفة رأيتك واقفة كالعروس، شابة جميلة وخجولة وعذراء. فشعرت بانني لو لمستك، حتى لو كان الامر تم برضاك ـ سيكون الامر اغتصاباً. فقررت الزواج منك، إلا أنه توجب عليّ أولاً التخلص من رودريغو، فقد طاردته طويلاً ولم يكن في نيتي تغيير رأيي لانني وقعت في الحب. اضافة الى أنه كان سيكون تهديداً لنا.

لن انس أبداً ما احسسته حين اكتشفت ذهابك الى الدير. فاقنعت نفسي بان طمع رودريغو بزمرد ديابلو سيتغلب على رغبته بتعذيبي عن طريق قتلك بحضوري.»

«هل سببت انهيار النفق متعمداً.»

«نعم. من الافضل التخلص منها. اذ مات والدي دفاعاً عن سرها. ولم اكن

مستعداً لتحمل المسؤولية، كما خسر العديدون حياتهم بسببها، طوال القرون.»

«ولكن بعد انتهاء كل شيء ـ حين عرضت علي الزواج، كنت بارداً نحوي الى حد بعيد.»

«كنت غاضبة معي الى حد لم استطع فيه توضيح ما اردت فعلاً توضيحه. كما انني كنت، بدوري، مغتاظاً.»

«لأنك واصلت برودتك نحوي. فظننت انك لم تعد ترغب بي، بعد ما حصل بيننا وانك ستتزوجني لان واجبك...»

«لم ارغب بك؟»

وقربها منه اكثر، قائلاً:

«لم تمر ساعة من الليل والنهار لم احس بها برغبة معطشة نحوك مثل رجل عطش في الصحراء.»

«اذن، لماذا...؟»

فلم يدعها تتم جملتها، بل قاطعها وقال:

«لانك خطيبتي الآن، وزوجة المستقبل. غفرت لنا والدتي الزلة الاولى إلاّ أنها أوضحت لي عدم قبولها لأي مسلك شائن بعد ذلك. فقررت أنه من الافضل أن نبقى بعيدين عن بعضنا البعض لفترة قصيرة.»

«لحسن الحظ لا يوجد من يرانا الآن.»

«نعم وساطلب من والدتي اتمام مراسيم الزواج بعد الغد لانني انوي بدء شهر العسل بسرعة سواء كنا متزوجين أولا.»

«اظن انها ستغضب من كلينا خاصة وان فستان العرس ليس جاهزاً.»

«لا تهمني ملابسك، رغم انني اهتم بتوفيرها لك. سنذهب الى ريو في الايام الاولى وسنشتري ما تحتاجينه هناك. ثم نتوجه بعد ذلك الى بريطانيا للقاء جدك.»

«وبعد ذلك؟»

«سنعود الى بيتنا.»

وحضنها بين ذراعيه مضيفاً.

«بلادي مختلفة عن بلادك. هل ستكونين قادرة على التأقلم هنا؟»

عرض ميندوزا عليها العودة الى بريطانيا للقاء جدها. رغم أن جدها كان يرغب بلقاء مارك في الدرجة الاولى ودهشت لأن الفكرة لم تعد تثير فيها الالم المعتاد.

«حيثما توجد هو بيتي يا حبيبي».

خاطبته بنعومة وعانقته بكل حبها وحنانها بقوة وأحست بانتمائها الفعلي له.